قصص شكسبير

كامل كيلانى

يوليوس قيصر

دار المعارف

كامل كيلاني

قصص شكسبير

يوليوس قيصر

الطبعة الخامسة عشرة

دار المعارف

مُقَدِّمة

أَيُّها الْقارِئُ الصَّغيرُ :

هٰذِهِ هِيَ القِصَّةُ الثَّالثةُ من قِصَصِ « شِكِسْبِيرَ » الّتِى وَعدْتُك باقْتباسِها (أَخْذِ خُلاصَتِها) وتقديمِها إلَيْكَ .

وَقَدْ دَأَبْتُ على خُطَّتِى (سِرْتُ على طَرِيقَتِى) مَعَكَ فى الْعِنايةِ باخْتِيارِ أَحْسَنِ القِصَصِ ، وأَكْثَرِها رَوْعَةً وَجمالًا . كما دَأَبْتُ عَلَى الرَّوِيَّةِ والتَّمَهُّلِ والتَّدَبُّرِ فى صَوْغِها وتَنْسِيقِها . وكُلِّى ثِقَةٌ فى أَنْ تَجْرِىَ مَعِى عَلَى سَجِيَّتِكَ (طَبِيعَتِكَ) فى إمْعانِ الفكرِ وَتَدْقِيقِ النَّظَرِ فيما تَقْرَأُ ، وإطالَةِ الرَّوِيَّةِ فِى فَهْمِ ما أَقُصُّهُ عَلَيْكَ .

وهٰذِهِ الْقِصَّةُ — كَسابِقَتَيْها — تَشْرَحُ لكَ مِنْ دَقائقِ الْحياةِ ، وَأَسْرارِ النُّفُوسِ ما أَنْتَ فى أَشَدِّ الْحاجَةِ إلى تعرُّفِهِ ، لِتَسْتَنِيرَ لَكَ السَّبِيلُ ؛ فتَمْشِىَ عَلَى هُدًى .

وَلَنْ تَجِدَ فى هٰذِهِ الْقِصَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُعْجِبَةِ إلَّا ما يَرُوعُكَ وَيَفتِنُكَ ؛ إذْ تَتَمَثَّلُ لَكَ فيها : عاقِبةُ الْحَسَدِ ، وَمَغَبَّةُ الْحِقْدِ ،

وآخِرَةُ الغَدْرِ . وسترَى : كَيفَ تنْتهِى هٰذِهِ الْخِلالُ بالْوَبالِ عَلَى أَصْحابِها ، وَتُنْزِلُهُمْ — مِنْ أَسْمَى درَجاتِ الْمَجْدِ — إلى أحطِّ درَكاتِ الْمَهانَةِ وَالشَّقاء ، وأَسْفَلِ مَنازِلِ الْهَوانِ والذُّلِّ .

. . .

سَتَرَى مِصْداقَ هٰذا (تَلْمُسُ الدَّليلَ عَلَى صِدْقِهِ) ، وَتَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ — آخِرَ الأَمْرِ — ويَخْفُقُ عَلَمُهُ (تَهْتَزُّ رايَتُهُ) ، ثُمَّ يَلْقَى الآثِمُونَ ما هُمْ أهلٌ لهُ مِنَ العِقابِ والتَّنْكيلِ ، جَزاءً وِفاقًا لِما اقْتَرَفُوهُ مِنْ إثْمٍ ، وارْتَكَبُوهُ مِنْ عُدْوانٍ .

. . .

وهأَنذا أَتْرُكُ الْحَديثَ لِ « شِكِسْبِيرَ » : فَهُوَ خَيْرُ مَنْ يُحَدِّثُك أَطْيَبَ الْحَديثِ ، وَأَقْدَرُ مَنْ يَقُصُّ عَلَيْكَ أَبْدَعَ القَصَصِ[١] .

كامل كيلاني

(١) نثبت مقدمة الطبعة الأولى كما أثبتناها فى الطبعات السابقة .

الفصل الأول

١ — فاتِحةُ القِصَّةِ

وَقَعَتْ حَوادِثُ هٰذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ قَبْلَ الْمِيلادِ بِأَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، فِى شَهْرِ مارِسَ . أَعْنِى : أَنَّها كانَتْ قَبْلَ وِلادَتِكَ — أيُّها القارِئُ الصَّغِيرُ — بأَلْفَىْ عامٍ إِلَّا قَلِيلًا . تَسْأَلُنِى : فى أىِّ مَكانٍ وَقَعَتْ تِلْكَ الحَوادِثُ الْغَرِيبَةُ الّتى أَقُصُّها عَلَيْكَ ؟

فاعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ — أَنَّها وَقَعَتْ فى مَدِينَةِ « رُومَةَ » عاصِمَةِ إيطاليا ، وَمَهْدِ حَضارَةِ الرُّومانِ (الْمَوْضِعِ الّذِى نَشَأَتْ فِيهِ) .

٢ — بهجةُ العِيدَيْنِ

وَكانَتْ مَدِينَةُ « رُومَةَ » — فِى ذٰلِكَ الْيَوْمِ — تَسْتَقْبِلُ عِيدَيْنِ ، وَتَبْتَهِجُ لِمُناسَبَتَيْنِ . أُولاهُما : عِيدٌ عامٌّ ، تَحْتَفِلُ فِيهِ الْبِلادُ فى مِثْلِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ عامٍ ، وَيَتَبارَى فيهِ السَّبّاقُونَ والعَدّاؤُونَ (الْجارُونَ عَلَى أَقْدامِهِمْ) وَمَنْ إِلَيْهِمْ . والثّانِيَةُ : عِيدٌ خاصٌّ ،

أَتاحَتْهُ فُرْصَةٌ بِعَيْنِها ، تِلْكَ هِيَ أَنَّ « يُولْيوسَ قَيْصَرَ » — بَطَلَ هٰذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْمُعْجِبَةِ ، وَزَعِيمَ الرُّومانِ الْأَوْحَدَ — عادَ إِلى وَطَنِهِ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ مُنْتَصِرًا عَلى أَعْدائِهِ ، بَعْدَ أَنْ حارَبَهُم ، وشَتَّتَ جُمُوعَهُم ، وَشَرَّدَ جُيُوشَهُم كُلَّ تَشْرِيدٍ ، وَنَكَّلَ بِهِمْ أَشَدَّ تَنْكِيلٍ ، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمَصائِبَ وَالنَّكَباتِ الْفادِحَةَ .

٣ — خُصُومُ « قَيْصَرَ »

وَكانَتْ جَمْهَرَةُ الْبِلادِ ، وَسَوادُ الشَّعْبِ ، يَسْتَقْبِلُونَ هٰذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ ؛ فَرَفَعُوا الْأَعْلامَ ، وَزَيَّنُوا الْمَدِينَةَ بِطاقاتِ الْأَزْهارِ وَالرَّياحِينِ ، وانْتَشَرُوا فِي الطُّرُقاتِ ؛ فَغَصَّتْ بِجُمُوعِهِمُ الْمَيادِينُ — عَلَى رُحْبِها — وَامْتَلَأَتْ حَتَّى ضاقَتْ بِوُفُودِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُبْتَهِجِينَ . وَلَمْ يَشُذَّ عَنْهُمْ — فِي هٰذا الْفَرَحِ الشَّامِلِ — إِلَّا فِئَةٌ قَلِيلُونَ مِنْ حُسَّادِ « قَيْصَرَ » وَمُنافِسِيهِ ، إِذْ كانُوا لا يُطِيقُونَ أَنْ يَسْمَعُوا بِانْتِصارِهِ ، وَلا تَقَرُّ نُفُوسُهُمُ الْوَضِيعَةُ (لا تَطْمَئِنُّ وَلا تَهْدَأُ) إِلَّا بِانْكِسارِهِ وَانْدِحارِهِ !

وَما عَرَفَ هٰؤُلاءِ الْحُسَّادُ مَوْعِدَ قُدُومِ « قَيْصَرَ » الْمُنْتَصِرِ ، حَتَّى اشْتَعَلَتْ بِالْحِقْدِ قُلُوبُهُم ، واضْطَرَمَتْ بِالْغَيْظِ نُفُوسُهُمُ (الْتَهَبَتْ) ، وَوَدُّوا لَوْ قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُبَدِّلُوا بِهٰذا الصَّفْوِ كَدَرًا ، وَيُحَوِّلُوا هٰذِهِ الْأَعْراسَ الْمَعْقُودَةَ (الْمُهَيَّأَةَ الْمَنْصُوبَةَ) إِلَى مَآتِمَ وَمَناحاتٍ .

٤ — الْحاسِدانِ

واشْتَدَّ الْحِقْدُ وَالْغَيْظُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ خُصُومِ « قَيْصَرَ » ، فَأَعْمَياهُما عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ ، وَطَوَّحا بِهِما فِي هاوِيَةٍ مِنَ الضَّلالِ وَالْغَيِّ !

وَكانَ اسْمُ أَوَّلِهِما : « فلَفْياسَ » ، وَاسْمُ الْآخَرِ : « مَرُلاسَ » .

فَخَرَجا يَعْتَرِضانِ الْجُمُوعَ الْمُتَدَفِّقَةَ الْمُنْدَفِعَةَ مِنَ النَّاسِ ، لِيَصُدَّاهُمْ عَنْ مُظاهَراتِهِم ، وَيَمْنَعاهُمْ مِنْ لِقائِهِمْ لِـ « قَيْصَرَ » .

فَصاحَ أَوَّلُهُما فِي أَحَدِ الْجُمُوعِ :

« عَلامَ تَتَجَمَّعُونَ ؟ وَلِماذا تَمْرَحُونَ ؟ وَلِأَيِّ داعِيَةٍ تَرَكْتُمْ أَعْمالَكُمْ ، وَانْصَرَفْتُمْ إِلَى الْبَطالَةِ وَاللَّهْوِ ؟ »

٥ — جوابُ النَّجّارِ

وكانَ عَلَى رَأْسِ جُمُوعِ النَّاسِ قائِدانِ . فالْتَفَتَ إِلَى أَحَدِهِما « مَرْلاسُ » — أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ : عَدُوَّىْ « قَيْصَرَ » — وقالَ لَهُ :

« ما صِناعَتُكَ ، أَيُّها الرَّجُلُ ؟ »
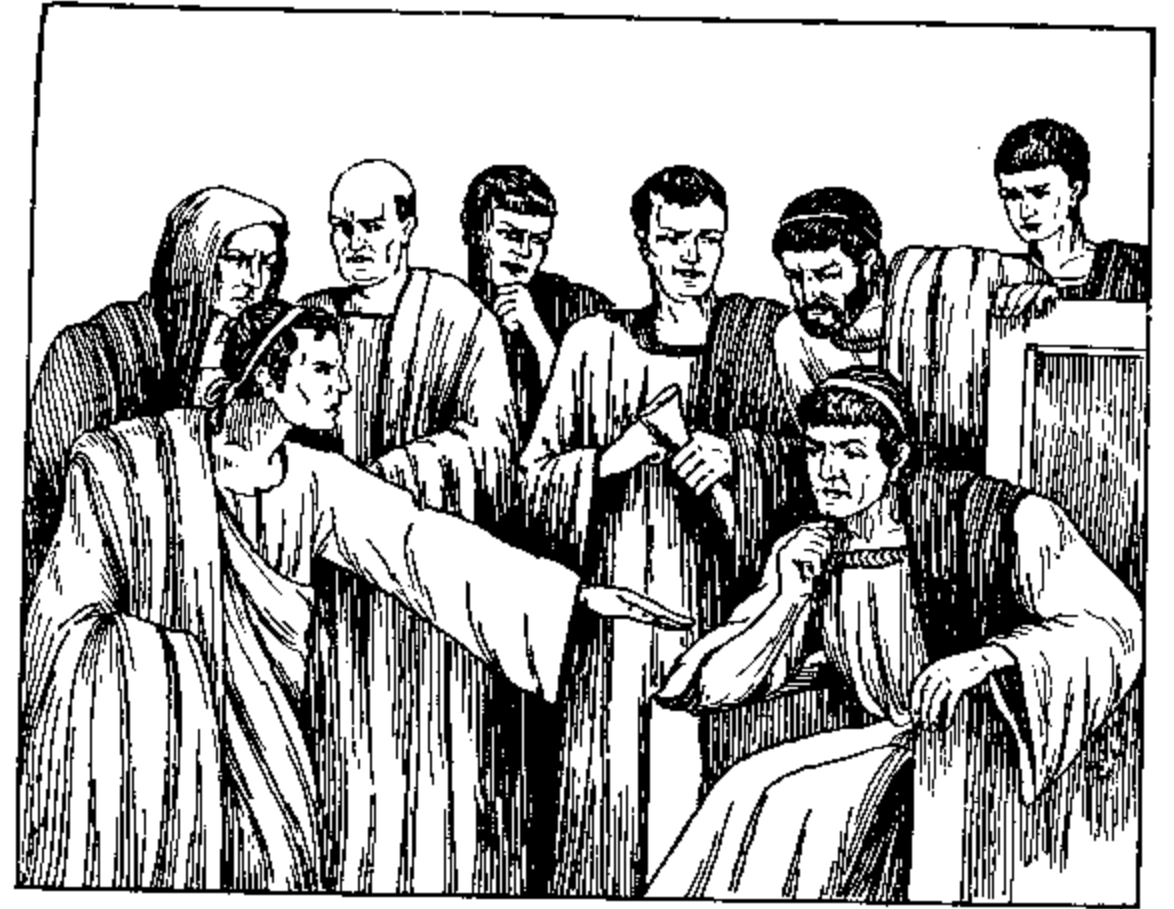
فَقالَ لَهُ : « أَنا — يا سَيِّدِى — نَجَّارٌ . »

فصاحَ فيهِ « مَرْلاسُ » :

« كَيْفَ هَجَرْتَ عملَكَ ؟ ولِماذا ارْتَدَيْتَ أَفْخَرَ ثِيابِكَ ؟ أَلا قُبْحًا لَكَ وَتَعْسًا (شَقاءً وَهَلاكًا) . »

٦ — حِوارُ الإِسْكافِ

ثُمَّ الْتفتَ « مَرْلاسُ » إِلَى الْقائِدِ الآخَرِ ، وَسَأَلَهُ مُغْضَبًا :

« وَأَنتَ : ما شَأْنُكَ ؟ وأَيَّ حِرْفَةٍ تَحْتَرِفُ ؟ »

فقال له : « أَنا إِسْكافٌ ، يا سَيِّدِى .. أُرَقِّعُ النِّعالَ الْقَدِيمَةَ ، وأُصْلِحُها ، كَما يُصْلِحُ الطَّبِيبُ الأَجْسامَ الْمَرِيضَةَ . فأَنا أَشْفِى النِّعالَ مِنَ الْهَلاكِ ، وأَرُدُّ إِلَيْها الْحَياةَ ثانِيَةً . . . ! »

فَقالَ لَهُ « فلفْياسُ » — زَمِيلُ « مَرْلاسَ » — مُغْتاظًا :

« وَما بالك تُزْعِمُ عَلَى هٰذا الْجَمْعِ الْحاشِدِ (تَجْعَلُ نَفْسَكَ زَعِيمًا عليه) ، وَتَطُوفُ بهِ فى الطُّرُقاتِ وَالْمَيادِينِ ؟ »

فَقالَ لَهُ الإِسْكافُ مُجِيبًا : « لِأَنَّ فِى ذٰلِكَ فائِدَتَيْنِ :

الأُولَى : أَنْ أُبْلِيَ نِعالَ الْمُتَجَمِّعِينَ : فَيُضْطَرُّوا إِلى إِصْلاحِها عِنْدِى ؛ فأَكْسِبَ بِذٰلِكَ مالًا . والثَّانِيَةُ : أَنْ أَظْفَرَ بِرُؤْيَةِ « قَيْصَرَ » الْمُنْتَصِرِ الْمَحْبُوبِ ، وأَملأَ ناظِرَىَّ بوَجْهِهِ الْمُشْرِقِ الْوَضَّاحِ . . »

فَصاحَ فيهِ « مَرْلاسُ » حانِقًا (غاضِبًا) : « وأَىُّ انْتِصارٍ أَحْرَزَهُ

« قَيْصَرُ » ؟ وأَيُّ غُنْمٍ نالَهُ ؟ وأَيُّ فائِدَةٍ عادَ بها إلى بِلادِهِ ؟ »

٧ — خِطابُ « مَرْلاسَ »

ثُمَّ وَقَفَ يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ مُهْتاجًا غاضِبًا :

« الْوَيْلُ لَكُمْ ، أَيُّها الْقَوْمُ ! أَنَسيتُمْ حَفاوَتَكُمْ وَاهْتِمامَكُمْ — مِنْ قَبْلُ — بِخُصُومِ « قَيْصَرَ » ؟ أَلَمْ تَهْتِفُوا — قَبْلَ الْيَوْمِ — لِقائِدِكُمْ وَزَعيمِكُمْ « بُمْبِي » ؟ أَلَمْ تَمْلَئُوا له الجَوَّ بِصِياحِكُمْ فَرِحينَ مُهَلِّلينَ ؟ أَلَمْ تُفْعَمْ قُلُوبُكُمْ غِبْطَةً وَسُرُورًا ، بِانْتِصارِه وفَوْزِه عَلَى أَعْداءِ الْوَطَنِ ؟ فما بالُكُمْ تَجْتَمِعُونَ — الْيَوْمَ — لِتُحَيُّوا خَصْمَهُ ؟ ما بالُكُمْ تَبْتَهِجُونَ بانْتِصارِ « قَيْصَرَ » عَلَيْهِ ؟ أَلا ما كانَ أَجْدَرَكُمْ بِالْبُكاءِ وَالْعَوِيلِ ، بَدَلًا مِنَ الْفَرَحِ والسُّرُورِ !

عُودُوا أَدْراجَكُمْ (ارْجِعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُمْ) ، واسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ ، واذْهَبُوا — سِراعًا — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ « التيبر » ، فاذْرِفُوا فِي مِياهِهِ عَبَراتِكُمْ ، وَأَسِيلُوا دُموعَكُمْ ، ثُمَّ ارْجِعوا واجْمَعُوا أَصْحابَكُمْ ، وأَقِيمُوا الْمَناحاتِ مَكانَ الْأَعْراسِ ! »

٨ — عِقابُ الحاسِدَيْنِ

وَلَمْ يَكْتَفِ « مَرْلاسُ » وَصاحِبُهُ بِتَشْتِيتِ هٰذا الْجَمْعِ ، بَلْ أَمْعَنا فِي الْكَيْدِ ، وَراحا يَرْفَعانِ الْأَزْهارَ وَالرَّياحِينَ مِنْ أَماكِنِها ، ويُجَرِّدانِ التَّماثِيلَ والنُّصُبَ (الْأَعْلامَ الْمَنْصُوبَةَ) الْمُحَلَّاةَ بها ؛ حَتَّى لا يَرَى الْقَيْصَرُ — فى طَرِيقِهِ — شَيْئًا مِنْ مَظاهِرِ التَّكْرِيمِ لَهُ ، والْحَفاوةِ بِهِ .

وقَدْ بَذَلا جُهْدَيْهِما فِي تَحْقِيقِ فِكْرَتِهِما الآثِمَةِ ؛ وَلٰكِنَّهُما عَجَزا جَمِيعًا عَنْ صَدِّ الجُمُوعِ الْمُتَدَفِّقَةِ الْأُخْرَى . وَلَقِيا عِقابَ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الخَرْقاءِ (الحَمْقاءِ) ، فَنَكَّلَ بِهِما أَنْصارُ « قَيْصَرَ » وَجَرَّدُوهُما مِمَّا أَحْرَزَاهُ مِنَ النِّيابَةِ (الْعُضْوِيَّةِ فى الْبَرْلَمانِ) وأَلْقابِ الشَّرَفِ .

٩ — نِداءُ العَرَّافِ

وَجاءَ « قَيْصَرُ » ، فَلَقِيَ مِنْ حَفاوةِ الْأَهْلِينَ وابْتِهاجِ الشَّعْبِ ،

ما يَجْدُرُ بِأَمْثالِهِ مِنْ كِبارِ الْغُزاةِ والْفاتِحِينَ .

وذَهَبَ « قَيْصَرُ » مُيَمِّمًا حَلْبَةَ السِّباقِ (قاصِدًا مَيْدانَهُ) ، وَحَوْلَهُ رَهْطٌ مِنْ أَصْحابِهِ (جَماعَةٌ مِنْ حاشِيَتِهِ) . وَصَدَحَتِ الْمُوسِيقَى ، وَفاضَ الْفَرَحُ والابْتِهاجُ عَلَى قُلُوبِ الْحاضِرِينَ جَمِيعًا .

وَرَنَّ — فى أَجْوازِ الْفَضاءِ (نَواحِيهِ) — صَوْتٌ عالٍ يُنادِي الْقَيصَرَ . فَقالَ « قَيصَرُ » : « مَن ذا يُنادِينِى ؟ »

فَسادَ صَمْتٌ عَمِيقٌ ، وكَفَّتِ الْمُوسِيقَى ، واشْرَأَبَّتِ الْأَعْناقُ (تَطاوَلَتْ) ، وأُرْهِفَتِ الآذانُ . وإذا بِصوتِ الْمُنَجِّمِ يُدَوِّى فى الْفَضاءِ ، مَرَّةً أُخْرَى (وَالْمُنَجِّمُ هُوَ الَّذِى يَدَّعِى مَعرِفَةَ الْمُستَقْبَلِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تُرْشِدُهُ إِلَى ذٰلِكَ) . وَإِذا الْمُنَجِّمُ يَقُولُ :

« حَذارِ — أَيُّها الْقَيصَرُ — مِنْ مُنْتَصَفِ مارسَ ! »

فَسَأَلَ « قَيْصَرُ » مَنْ حَولَهُ عَنْ هٰذا الرَّجُلِ . فَقالَ لَهُ صَدِيقُهُ « بُروتَسُ » : « إِنَّهُ عَرّافٌ (مُخْبِرٌ عَنِ الْغَيْبِ) ، يُحَذِّرُكَ مُنْتَصَفَ هٰذا الشَّهْرِ ! » فاستَدْعاهُ « قَيصَرُ » إِلَيه ، وَسَأَلَهُ عَمّا يَقُولُ ؛ فَأَعادَ عَلَيهِ الْعَرّافُ قَولَهُ : « حَذارِ مُنْتَصَفَ مارسَ ! »

فَهَزِئَ بِهِ « قَيْصَرُ » ، وَقالَ لَهُ ساخِرًا : « ما أُراكَ إِلَّا حالِمًا قد تَمَلَّكَكَ الْوَهْمُ ، وَاسْتَوْلَى عليكَ الْخَبالُ . . . »

ثُمَّ ذَهَبَ « قَيْصَرُ » وَشِيعَتُهُ ، لِيَشْهَدُوا حَلْبَةَ السِّباقِ .

١٠ — حِوارُ الصَّدِيقَيْنِ

وَبَقِيَ « كَسْياسُ » و« بُرُوتَسُ » فى مَكانِهِما . فقال أَوَّلُهُما لِصاحِبِهِ ، وَهُوَ يُحاوِرُهُ : « أَراكَ باقِيًا حَيْثُ أَنْتَ ، فَهَلِ اعْتَزَمْتَ أَلَّا تَحْضُرَ حَفْلَ السِّباقِ الْمُقَدَّسَ فِي هٰذا الْيَوْمِ ؟ »

فقالَ لَهُ « بُرُوتَسُ » : « إِنِّى لا أَنْشَطُ لِمِثْلِ هٰذِهِ الْأَلاعِيبِ الْفارِغَةِ ، ولا أُحِسُّ رَغْبَةً فى حُضُورِها . »

فَقالَ لَهُ « كَسْياسُ » : « حَسَنًا تَفْعَلُ ، أَيُّها الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ (الْقَوِيُّ الصَّداقَةِ) . وما أُراكَ إِلَّا راشِدًا فِيما تَقُولُ . ولٰكِنْ أَتَأْذَنُ لِي فى مُجاهَرَتِكَ (إِخْبارِكَ صَراحَةً) بِما يَجُولُ فى نَفْسِي (يَدُورُ بِخاطِرِي) مِنَ الْعَتْبِ عَلَيْكَ ، أَيُّها الصَّدِيقُ ؟ »

فَقالَ لَهُ « بُرُوتَسُ » : « جاهِرْنِى بِما تَشاءُ ؛ فَلَيْسَ أَحَبَّ

إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ . » فَقَالَ « كَسْيَاسُ » : « أَحَقٌّ ما تَقولُ ، أَيُّها الصَّدِيقُ ؟ لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِي (وَقَعَ فِي قَلْبِي) أَنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ — فِي هٰذِهِ الأَيَّامِ — مُتَنَكِّرًا لِي . . . وَقَدْ حالَ وِدادُكَ (تَغَيَّرَ) ، وَاغْبَرَّ صَفاؤُكَ (تَكَدَّرَ) ؛ فَأَصْبَحْتَ عابِسَ الْوَجْهِ ، قاسِيَ النَّظَراتِ ، جافَّ الأَلْفاظِ ! »

فَقالَ لَهُ « بُرُوتَسُ » : « ما أُراكَ إِلَّا واهِمًا فِيما ذَهَبْتَ إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ أَحْزانِيَ الدَّفِينَةَ لا تَدَعُ لِي مَجالًا لِلابْتِسامِ . وَلٰكِنَّ ثِقَتِي بِإِخْوانِي ، وَوَفائِي لَهُمْ ، لَمْ يَتَغَيَّرا قَطُّ عَلَى كُلِّ حالٍ . »

١١ — شَكْوَى « كَسْيَاسَ »

فَقالَ لَهُ « كَسْيَاسُ » : « لَقَدِ ابْتَهَجَتْ نَفْسِي لِما تَقُولُ . وَلٰكِنَّ آلامًا أُرِيدُ أَنْ أَبُثَّكَ إِيَّاها ، وَأُطْلِعَكَ عَلَيْها : إِنَّ الْمَظالِمَ قَدْ أَفْعَمَتْ قُلُوبَنا أَسًى وَحُزْنًا . وَلَقَدْ أَجْمَعَ سَراةُ « رُومَةَ » (كُبَراؤُها وَأَعْيانُها) عَلَى أَنَّكَ وَحْدَكَ زَعِيمُ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، وَمَناطُ رَجائِها ، وَمَوْضِعُ أَمَلِها . كَما أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّكَ — لَوْ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ

نَفْسِكَ — قادِرٌ بِمُفْرَدِكَ عَلَى تَفْرِيجِ كُرْبَةِ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، وَكَشْفِ ما تُعانِيهِ مِنْ ضائِقَةٍ وَحَيْفٍ (ظُلْمٍ وَإِرْهاقٍ) ، وَتَكْلِيفٍ بِما لا يُطاقُ . » فَقالَ لَهُ « بُرُوتَسُ » واجِمًا :

« إِنَّكَ لَتُكْبِرُ مِنْ أَمْرِي ما صَغُرَ ، وَتُعَظِّمُ مِنْ شَأْنِي ما حَقُرَ . وَما أُراكَ — أَيُّها الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ — إِلَّا مُورِدِي مَوارِدَ الْهَلاكِ (لا أَظُنُّكَ إِلَّا ذاهِبًا بِي مَذاهِبَ الْمَوْتِ) . »

فَقالَ « كَسْيَاسُ » : « ما أَجْدَرَنِي أَنْ تُخْلِدَ (تَرْكَنَ) إِلَيَّ بِثِقَتِكَ . فَلَسْتُ إِلَّا مِرْآةَ نَفْسِكَ . وَما أَنا بِكاذِبِكَ الْقَوْلَ ؛ فَأَنْتَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِصِدْقِي وَإِيثارِي (اخْتِيارِي) الْجِدَّ ، وَبُعْدِي عَنِ الرِّياءِ وَالنِّفاقِ وَالتَّمَلُّقِ . فَإِذا قُلْتُ لَكَ : إِنَّكَ مَناطُ رَجاءِ أُمَّتِكَ ، فَلَسْتُ فِي هٰذا إِلَّا مُقَرِّرًا الْحَقِيقَةَ الخالِصَةَ ، الَّتِي لا يَشُوبُها أَقَلُّ رَيْبٍ (لا يَخْتَلِطُ بِها أَيُّ شَكٍّ) . »

فَقالَ « بُرُوتَسُ » : « إِنِّي أَبْذُلُ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِي فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ . وَمَتَى دَعانِي داعِي الواجِبِ لَبَّيْتُهُ مُسْرِعًا فَرِحًا ، وَتَساوَى فِي نَظَرِيَ الْمَوْتُ وَالْحَياةُ . »

١٢ – حِقْدُ «كَسْياسَ»

فَقالَ «كَسْياسُ» : «عَلِمَ اللهُ أَنَّنى ما شَكَكْتُ – لَحْظَةً واحِدَةً – فى صِدْقِ عَزِيمَتِكَ ، وكَرَمِ نَفْسِكَ ، وَإِجْلالِكَ لِوَطَنِكَ . وَلقد حَفَزَتْنى تلكَ الخِلالُ الكَرِيمَةُ (دَفَعَتْنى تِلكَ الأَخلاقُ النَّبِيلَةُ) الَّتى عَرَفْتُها فِيكَ ، إلى مُجاهَرَتِكَ بِهٰذا الْحَديثِ :

لَقَدْ وُلِدْنا – يا أَخِى – أَحْرارًا كَما وُلِدَ «قَيْصَرُ» ، وَلَنا مِثْلُ مَواهِبِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَزاياهُ ، إِنْ لَمْ نَرْجَحْهُ وَنَزِدْ عَلَيْهِ .

وَلَقَدْ أَنْقَذْتُهُ – ذاتَ مَرَّةٍ – مِنَ الْغَرَقِ ، بِقُوَّةِ ساعِدِى ، وَكادَ يَهْلِكُ لَوْلا مُساعَدَتى . وَما أَدْرِى : كَيْفَ وَصَلَ هٰذا الرَّجُلُ إِلَى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالزَّعامَةِ ، وَبَلَغَ أَعْلَى مَكانٍ فِيهِما ، وَأَصْبَحَ الشَّعْبُ يُقَدِّسُهُ ، وَأَصْبَحْتُ أَنا – بِالْقِياسِ إِلَيْهِ – عَبْدًا ذَلِيلًا ، أَنْحَنِى أَمامَهُ ، وَلا أَجْرُؤُ عَلَى مُخالَفَةِ إِشارَتِهِ ؟ . . .

لَقَدْ شَهِدْتُ هٰذا الرَّجُلَ يَشْكُو آلامَ الْحُمَّى فى «إِسْبانيا» ، وَرَأَيْتُهُ يَتَأَوَّهُ مِنْ آلامِ الْمَرَضِ كَما يَتَأَوَّهُ الأَطْفالُ ، وَيَئِنُّ كَما

يَئِنُّ العَجَزَةُ . وَهٰأَنَذا أَرَى ضَعْفَهُ يَتَحَوَّلُ إِلى قُوَّةٍ ، وَعَجْزَهُ يَصِيرُ إِلَى قُدْرَةٍ ، وأَراهُ يَبْطِشُ بالأَقْوِياءِ ، وَيَفْتِكُ بالقادَةِ ، وَيُطِيحُ الأَبْطالَ والزُّعماءَ (يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ) . وما أَرانا إِلَّا جَدِيرَيْنِ بالْمَهانَةِ والاحْتِقارِ ، ما دُمْنا نَتْرُكُ لَهُ الْحَبْلَ على الغارِبِ ، وَنَدَعُهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ، وَلا نَقِفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ . وما أَدْرِى – وَاللهِ – كَيفَ أُتِيحَ لهُ كُلُّ ذٰلِكَ التَّوْفِيقِ ؟ وأَىُّ رَنِينٍ فى اسْمِهِ قَدْ خَلَبَ أَلْبابَ الشَّعْبِ (سَحَرَها) ، وَفَتَنَ عُقُولَ الْجُمْهُورِ ؟ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَهُ فى سَطْرٍ واحِدٍ : «بُرُوتَسُ» و «قَيْصَرُ» ، وَانْطِقْ بِهِما جميعًا ، ووازِنْ بينَ أَحْرُفِهِما ، فهلْ تَرَى أَحَدَهُما يَقِلُّ عن الآخَرِ عُذُوبَةً فى اللَّفْظِ ، ورَنِينًا فى الأُذُنِ ؟ »

وما زالَ «كَسْياسُ» مُتَفَنِّنًا فى ضُرُوبِ الكَيْدِ لِقَيْصَرَ ، مُتَمَدِّحًا بِخِلالِ «بُرُوتَسَ» وَمَزاياهُ ، حَتَّى هاجَهُ وَأَوْغَرَ صَدْرَهُ (أَشْعَلَهُ غَيظًا) عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «قَيْصَرَ» ، وحَفَزَهُ إِلَى الفَتْكِ بِهِ ، والانْتِقامِ مِنهُ .

١٣ – عَوْدَةُ « قَيْصَرَ »

وَلَمَّا عادَ « قَيْصَرُ » ، لَمَحَ « كَسْياسَ » وَهُوَ يُحادِثُ « بُرُوتَسَ » ؛ فَهَمَسَ « قَيْصَرُ » فى أُذُنِ رَفِيقِهِ الْوَفِيِّ « أَنْطُنْيُوسَ » :

« ما أَعْجَبَ هٰذا الرَّجُلَ الْخَطِيرَ ، وما أَشَدَّ دَهاءَهُ ، وأَعْظَمَ مَكْرَهُ ، وَما أَقْبَحَ نَظَراتِهِ ، وَأَكْثَرَ هَواجِسَهُ (خَواطِرَ نَفْسِهِ) ! »

فَقالَ لَهُ « أَنْطُنْيُوسُ » : « لا عَلَيْكَ ، وَلا يَسُؤْكَ هٰذا ، فَهُوَ – يا سَيِّدِى – طَيِّبُ الْقَلْبِ ، كَرِيمُ الأَصْلِ . »

فَقالَ « قَيْصَرُ » : « إِنَّ « قَيْصَرَ » لا يَخْشَى كائِنًا كانَ . وَلَوْ أَنَّ « قَيصَرَ » يَخْشَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، لَكانَ هٰذا الرَّجُلُ وَحْدَهُ مَصْدَرَ حَذَرِهِ ، وَمَبْعَثَ خَوْفِهِ . أَلا تَراهُ شاحِبَ الْوَجْهِ ، مَهْزُولَ الجِسْمِ ، كَثِيرَ الإِطْراقِ ، دائِمَ التَّفْكِيرِ ، يَكادُ لا يَبْتَسِمُ ؟ شَدَّ ما تُدْهِشُنِى غَرابَةُ أَطْوارِهِ (أَحْوالِهِ) ، وعُمْقُ نَظَراتِهِ ! وما أَظُنُّ « كَسْياسَ » هٰذا يَرْتاحُ لَهُ بالٌ ، ويَهْدَأُ لَهُ خاطِرٌ ، أَوْ يَظْفَرَ بِرُتْبَةِ الزَّعامَةِ ، وَيَنالَ غايَةَ الْمَجْدِ . وما أُراهُ يَظَلُّ لَيْلَهُ إِلَّا مُؤَرَّقًا (ساهِرًا

مَهْمُومًا) ؛ لِأَنَّ فى « رُومَةَ » رَجُلًا أَرْفَعَ منهُ مَنْصِبًا ، وأَعْلَى مَكانَةً ، وأَعْظَمَ جاهًا . »

١٤ – حَدِيثُ « كَسْكا »

ثُمَّ خَرَجَ « قَيْصرُ » وَحاشِيَتُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا « كَسْكا » . وَكانَ « كَسْياسُ » قَدْ جَذَبَ فَضْلَ رِدائِهِ (طَرَفَ ثَوْبِهِ) ، لِيَحْجُزَهُ مَعَهُ قليلًا ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا حَدَثَ فى حَفْلَةِ السِّباقِ . وكانَ « كَسْكا » يَمْقُتُ « قَيْصَرَ » أَشَدَّ الْمَقْتِ ، وَيُبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ ؛ فَراحَ يَقُصُّ عَلَى « كَسْياسَ » وَ « بُرُوتَسَ » – بعيْنِ الحاقِدِ المَغِيظِ الْمُحْنَقِ – ما رآهُ فى تِلْكَ الْحَفْلَةِ ، وَيَقُولُ لَهُما : « إِنَّها كانتْ أَشْبَهَ شَىْءٍ بِقِصَّةٍ تَمْثِيلِيَّةٍ سَخِيفَةٍ . فَقَدْ عَرَضَ « أَنْطُنْيُوسُ » التَّاجَ عَلَى صَدِيقِهِ « قَيْصَرَ » – عَلَى مَرْأًى مِنَ النَّظَّارَةِ (الْمُشاهِدِينَ) – فَرَفَضَهُ « قَيْصَرُ » مُتَظاهِرًا بِالزُّهْدِ فى كُلِّ مَرَّةٍ . وقَدْ خُدِعَ الْحاضِرُونَ ، فَصَفَّقُوا لِذٰلِكَ التَّمْثِيلِ ، وَقَذَفَ العامَّةُ بِقَلانِسِهِمْ (أَغْطِيَةِ رُءُوسِهِمْ) ، وتَعالَتْ صَيْحاتُهُمْ سُرُورًا . »

ثُمّ خَرَجَ « كَسْكا » ، بَعْدَ أَنْ لَعَنَ « قَيْصَرَ » ، وَحَقَّرَ مِنْ أمرِهِ ما شاءَ لَهُ حِقْدُهُ . وَكانَ « كَسْياسُ » يُحَبِّذُ قَوْلَهُ ، حَتّى امْتَلأَتْ نَفسُ « بُرُوتَسَ » حِقْدًا عَلَى صَدِيقِهِ « قَيْصَرَ » ، وَكَرَاهِيَةً لَهُ . وَخَرَجَ « بُرُوتَسُ » عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَ « كَسْياسَ » فِي دارِهِ ، فِي فَجْرِ الْغَدِ .

١٥ — لَيْلَةٌ هائِلَةٌ

وَقَدِ الْتَقَى « شِشِيرُونُ » صَدِيقَهُ « كَسْكا » ، فرآهُ يَرْعُدُ وَيُزَمْجِرُ وَيَهِيجُ غاضِبًا ، وَقَدْ شَهَرَ فِي يَدِهِ حُسامَهُ (سَلَّ سَيْفَهُ) ؛ فسأله « شِشِيرونُ » : « أيُّ خَطْبٍ أَفزعَكَ ؟ وَأيُّ أَمْرٍ خَوَّفَكَ ؟ »

فَقالَ له « كَسْكا » : « لقـد رأيتُ مِنَ الْمُفْزِعاتِ الْماضِيَةِ والأَحْداثِ والشُّئُونِ مالا يَخْطُرُ عَلَى بالٍ ، وَشَهِدْتُ هِياجَ الْبَحْرِ ، واصْطِخابَ الأمْواجِ (اضْطِرابَها) ، وَثَوْرَةَ العواصِفِ الْهُوجِ (الرِّياحِ الَّتِي تَهُبُّ يمِينًا وَشِمالًا) ، وَعُنْفَ الزَّوابعِ الَّتِي تَقْتَلِعُ الدَّوْحَ (الأشجارَ الضَّخْمَةَ) ، ولٰكِنَّنِي لَمْ أرَ — فِي كُلِّ ما رَأَيْتُ مِنَ المُرَوِّعاتِ —

بَعْضَ ما رَأَيْتُهُ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ الْهائِلَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ بِخَلَدِي أَنَّ العَواصِفَ تُمْطِرُ شَرَرًا ، وأَنَّ السَّماءَ تَقْذِفُ ساكِنِي الْأَرْضِ نارًا وَلَهَبًا ! لَقَدْ هَوَتِ الصَّواعِقُ عَلَى بَعْضِ الأَهْلِينَ فَأَحْرَقَتْهُمْ ، وَرَأَيْتُ

فِي طَرِيقِي عَبْدًا تَغْمُرُ النّارُ جِسْمَهُ ، وَنِساءً مَذْعُوراتٍ شاحِباتٍ (مُتَغَيِّراتِ الْوُجُوهِ) يَعْتَسِفْنَ الطُّرُقاتِ (يَتَخَبَّطْنَ فِي سَيْرِهِنَّ عَلَى غَيْرِ هُدًى) ، وَقَدْ مَلَأَ الذُّعْرُ قُلُوبَهُنَّ . وَأَبْصَرْتُ أَسَدًا شارِدًا فِي الطَّرِيقِ ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَيَّ مُحَدِّقًا ، وَلَمْ يَمَسَّنِي بِأَذًى . وَقَدْ سَمِعْنا

الْبُومَةَ — ظُهْرَ أمْسِ — تَنْعَبُ وتُنْذِرُنا بالوَيْلِ ، فعَجِبْنا : كيفَ ظَهَرَتْ نَهارًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَنا بِذٰلِكَ عَهْدٌ ؟ »

فَقالَ لَهُ « شِشِيرونُ » : « ما أجْدَرَنِى بِالْعَوْدَةِ إلَى دارِى ، فَإنَّ الطَّرِيقَ مَخُوفَةٌ لا تُشَجِّعُ على الْبَقاءِ فِيها . »

وما تَرَكَهُ « شِشِيرونُ » ، حَتى جاءَ « كَسْياسُ » ؛ فَحَيَّا صديقَهُ « كَسْكا » ، وَرَأى ما يُساوِرُهُ منَ الذُّعْرِ والْخَوْفِ ؛ فقالَ لَهُ : « لَيْسَ أحَبَّ إلَى نَفْسِى مِنْ هٰذِهِ الْعَواصِفِ الْمُلْتَهِبَةِ الثَّائِرَةِ ؛ فإنَّها تُوقِظُ الْهِمَمَ ، وَتُنْذِرُ بِأُمُورٍ جِسامٍ (عَظِيمَةٍ) . وَلَسْتُ أرَى — فى هٰذِهِ الأحْداثِ الْهائِلَةِ — إلّا إنْذارًا لِساكِنِى « رُومَةَ » بِطَرْحِ الْخُمُولِ وَالْكَسَلِ ، وَشَحْذًا لِعَزائِمِهِمُ الْخائِرَةِ ، وتَقْوِيَةً لِهِمَمِهِمُ الضَّعِيفَةِ الفاتِرَةِ ؛ لِيَنْتَقِمُوا مِنَ الظَّلَمَةِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وَيُقَوِّضُوا صُرُوحَ الْبَغْيِ (يُسْقِطُوا بُيُوتَ الظُّلْمِ) ، وَيَقْضُوا عَلَى نُفُوذِ « قَيْصَرَ » الَّذِى أذَلَّ زُعَماءَ الْبِلادِ ، وجَعَلَهُمْ لَهُ عَبِيدًا وخَدَمًا . »

* * *

وكانَ « كَسْياسُ » يَرى — فى ثَوْرَةِ الطَّبيعَةِ وطُغيانِها — مِثالًا

لِما يَجِيشُ فِى نَفْسِهِ مِنْ ثَوْرَةِ الْحِقْدِ . وَقَدْ أسَرَّ إلَى « كَسْكا » بِما يَشْتَعِلُ فى صَدْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْكَيْدِ لِـ « قَيْصَرَ » . وما زالَ بِهِ حَتَّى ضَمَّهُ إلَى شِيعَتِهِ وأنْصارِهِ .

وباتَ « كَسْياسُ » لَيْلَهُ ساهِدًا (مُؤَرَّقًا لا يَنامُ) ، يُدَبِّرُ مَكِيدَتَهُ ، ويُحْكِمُ مُؤامَرَتَهُ الَّتى اعْتَزَمَ إنْفاذَها فِى غَداةِ الْغَدِ (صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِى) ، مَعَ رِفاقِهِ الحاقِدِينَ ، وَشِيعَتِهِ الْغادِرِينَ .

١ — وَساوِسُ « بُرُوتَسَ »

قَضَى « بُرُوتَسُ » لَيْلَةً هائِلَةً ، وَظَلَّ طَرِيحَ الْفِراشِ ، تَنْتابُهُ الْوَساوِسُ ، وتُعاوِدُهُ الْمَخاوِفُ ، وَلَمْ يَطْرُقِ الْكَرَى طَرْفَهُ (لَمْ يَزُرِ النَّوْمُ عَيْنَهُ) . ولَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ فِراشِهِ مَذْعُورًا ، وأَيْقَظَ خادِمَهُ ، وأَمَرَهُ أنْ يُوقِدَ الْمِصْباحَ ، ثُمَّ أَطْرَقَ « بُرُوتَسُ » مُفَكِّرًا ، وقَلْبُهُ يَفِيضُ أَسًى وحُزْنًا ، لِهَوْلِ ما هُوَ قادِمٌ عَلَيْهِ .

* * *

وكانَ « بُرُوتَسُ » خَيْرَ صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَفِيٍّ لِـ « قَيْصَرَ » ، ولَمْ يَكُنْ يَلْقَى مِنْهُ إلّا ما يُحِبُّ . لِهٰذا وقَفَ « بُرُوتَسُ » مُتَرَدِّدًا حائِرًا ، يُحاوِلُ أنْ يُسَوِّغَ جريمتَه (يَجْعَلَها مَقْبُولَةً) أمامَ نَفْسِهِ ، بَعْدَ أنِ اعْتَزَمَ تَحقيقَها . ولَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يُبِيحُ اقْتِرافَ هٰذِهِ الفَعْلَةِ الشَّنْعاءِ . وَقَدْ أَعْوَزَتْهُ الْأَسْبابُ ، فَلَمْ يَجِدِ الأَدِلَّةَ الَّتِي تُقْنِعُهُ بِصَوابِ

ما سَمِعَهُ مِنْ « كَسْياسَ » ، ولَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إلّا أنْ يَخْلُقَ تِلْكَ الْأَسْبابَ خَلْقًا .

٢ — مُسَوِّغاتُ الْجَرِيمَةِ

فَقالَ « بُرُوتَسُ » لِنَفْسِهِ : « إنَّ الطَّمَعَ بِلا شَكٍّ سَيُغْرِي « قَيْصَرَ » بِظُلْمِ الشَّعْبِ ، وَالتَّكَبُّرِ على أَصدقائِه . ولَئِنْ صَحَّ ما قالَهُ « كَسْياسُ » لَيَكُونَنَّ إنقاذُ « رُومَةَ » على أَيْدِينا مِنْ عَسْفِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وجَوْرِ الظّالِمِينَ ، ولَنَرْجِعَنَّ لِلنّاسِ حُرِّيَّتَهُمُ الْمَسْلُوبَةَ . أَلا إنَّنِي لا أُضْمِرُ حِقْدًا لِـ « قَيْصَرَ » ، وما كُنْتُ لهُ عَدُوًّا يَوْمًا مِنَ الْأَيّامِ ، ولٰكِنَّ مَصْلَحَةَ بِلادِي خَيْرٌ مِنْ صَداقَتِه ، وحُرِّيَّةَ وطَنِي أَثْمَنُ مِنْ إرضاءِ « قَيْصَرَ » . لَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إلى أَنْ يُتَوَّجَ على « رُومَةَ » ؛ فَإذا تَمَّ لهُ ذٰلك ، مَكَّنّا له مِنْ رِقابِنا ، وأَذْلَلْنا لَهُ أَعناقَنا ، وحَنَيْنا تَحْتَ قَدَمَيْهِ رُؤُوسَنا . إنَّ « قَيْصَرَ » لم يُسِئْ إلَيْنا ، ولا إلى « رُومَةَ » قَطُّ ، ولٰكِنَّهُ — إذا تَمَّ لهُ مَأْرَبُهُ (مُرادُهُ) ، وتَحَقَّقَتْ أَطْماعُهُ — لَنْ يَرْحَمَ كائِنًا كانَ ، ولَنْ يَتَوَرَّعَ عَنِ الْبَطْشِ

بِرُءُوسِ « رُومةَ » ، وَقَتْلِ أَعيانِها . إِنَّ بَيْضَةَ الْأَفْعَى لا بُدَّ أَنْ تُفْرِخَ بَعْدَ حِينٍ ، ثُمَّ تُصْبِحَ حَيَّةً خَبِيثَةً مُؤْذِيَةً تَفْتِكُ بِكُلِّ ما تَلْقاهُ فى طَرِيقِها . وما أَجْدَرَنا أَنْ نُحَطِّمَ الْبَيْضَةَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْها الْحَيَّةُ . إِنَّ عَقْلَ « قَيْصَرَ » راجِحٌ لَمْ تُغالِبْهُ الأَهْواءُ والنَّزَعاتُ الضَّارَّةُ ، ولَمْ يُغَيِّرْهُ النَّجاحُ — فِيما نَعلمُ — ولٰكِنَّ الْحياةَ قَدْ حَذَّرَتْنا أَنْ نَنْخَدِعَ بِتِلكَ الْمَظاهِرِ : فَإِنَّ الْعُظَماءَ جَمِيعًا يَتَّخِذُون التَّواضُعَ — فِى بَدْءِ حَياتِهِم — مِرْقاةً إِلَى أَطماعِهِمْ ، وسُلَّمًا لِتَحْقِيقِ أَغْراضِهِمْ ؛ حَتَّى إِذا بَلَغُوا القِمَّةَ ، نَسُوا كلَّ شَىْءٍ ، وتطلَّعوا إِلَى سَماءِ العَظَمَةِ . ولَمْ يَذْكُرُوا السُّلَّمَ الَّذِى صَعِدُوا أَدْراجَهُ ، وارْتَقَوْا مَراتِبَهُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعلَى ، ولم يَعْرِفُوا لَهُ فَضْلاً عَلَيْهِمْ . »

٣ — بِطاقَةُ الْمُؤامَرَةِ

وَظَلَّ « بُرُوتَسُ » يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِهٰذِهِ التَّعِلَّاتِ الخاطِئَةِ . وَإِنَّه لَغارِقٌ فى أَوْهامِهِ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خادِمُهُ « لُسْيُوسُ » وَفِى يَدِهِ بِطاقَةٌ أَلْقَى بِها الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَتِهِ ، وَفيها :

« أَيُّها النَّائِمُ ! اسْتَيْقِظْ ، فَقَد حانَ وَقْتُ العَمَلِ ، واقْتَدِ بِأَسْلافِكَ (اتَّبِعْ مَنْ قَبْلَكَ) مِنَ الْفاتِحِينَ ؛ فإِنَّ إِنْقاذَ « رُومَةَ » لَنْ يَتِمَّ إِلَّا عَلَى يَدَيْكَ . »

وما انْتَهَى « بُرُوتَسُ » مِنْ قِراءَةِ البِطاقَةِ ، حَتَّى سَمِعَ طَرْقًا بِالبابِ ، وكانَ القادمُ « كَسْياسَ » ومَعَهُ أَرْبعةٌ مِن رِفاقِهِ المُؤْتَمِرِينَ بِـ « قَيْصَرَ » ، وهُمْ جميعًا مُلَثَّمُونَ (مُغَطُّونَ أَوْجُهَهُمْ) لا يَبْدُو منهمْ غيرُ أَعيُنِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ « بُرُوتَسُ » أَنْ يُمِيطُوا اللِّثامَ (يَرْفَعُوهُ عن وُجوهِهِمْ) ، وقال لَهُمْ : « لَسْنا أَثَمَةً ولا مُجْرِمِينَ ، فما بالُنا نَعْمَلُ فى الظَّلامِ ؟ »

ثُمَّ جَلَسُوا يَتَشاوَرُونَ ساعةً فِيما يَفْعلُونَ . واقْتَرَحَ « كَسْياسُ » أَنْ يُقْسِمُوا جَمِيعًا عَلَى الْوَفاءِ بِعُهُودِهِمْ لِوَطَنِهِمُ الْعَزِيزِ ، والِانْتِقامِ مِنْ « قَيْصَرَ » الْمُسْتَبِدِّ . فَصاحَ فِيهِم « بُرُوتَسُ » صَيْحَةَ الْمُغْضَبِ الحانِقِ :

« ما حاجَتُنا إِلَى الْقَسَمِ ، ونَحْنُ رِجالٌ لا نَتَرَدَّدُ فِيما نَعْتَزِمُ ؟ إِنَّ آلامَنا وآمالَنا واحِدَةٌ ، وقدْ آلَيْنا عَلَى أَنْفُسِنا (أَقْسَمْنا) أَنْ

نَخْدُمَ الوَطَنَ ، وَنُنْقِـذَ « رُومَةَ » وَنَبْطِشَ بِالْمُسْتَبِدِّ الظَّالِمِ . فإذا
لَمْ نَكُنْ خَلِيقِينَ بِتَحْقِيقِ آمالِ الْبِلادِ ، فلا خَيْرَ فِينا ، وَلا فائِدَةَ
مِنَ الْقَسَمِ . » فَأَمَّنُوا جَمِيعًا على رَأْيِهِ .

٤ — اقتِراحُ « كَسْياسَ »

ثُمَّ قالَ « كَسْياسُ » : « لا فائِدَةَ من قَتْلِ « قَيْصَرَ » إذا لَمْ
نُتْبِعْهُ قَتْلَ صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ « أَنْطُنْيُوسَ » ؛ حَتَّى لا يَهِيجَ الشَّعْبَ ،
فَيُحَرِّضَهُ عَلَى إيذائنا والانْتِقامِ مِنَّا . »

قَالَ « بُرُوتَسُ » : « لا سَبِيلَ لَنا إلَى تَحْقِيقِ هٰـذا الاقتِراحِ ،
وإلَّا أَصْبَحْنا مُجْرِمِينَ سَفَّاحِينَ (مُسِيلِينَ لِلدِّماءِ مُحِبِّينَ لِلْغَدْرِ) .
لَقَدِ اعتَزَمْنا أن نُنْقِذَ البِلادَ مِنِ اسْتِبْدادِ « قَيْصَرَ » وظُلْمِهِ ،
فَما ذَنْبُ « أَنْطُنْيُوسَ » ؟ وما بالُنا نَجْزَعُ مِنْهُ ، وَهُوَ لَمْ يُسِئْ إلَى
وطَنِنا ، ولَمْ تَبْدُرْ مِنهُ إساءَةٌ إلى « رُومَةَ » ؟ لَوْ أَنَّنا قَدَرْنا على
إزْهاقِ رُوحِ « قَيْصَرَ » دُونَ أَنْ نُرِيقَ مِنْ دَمِهِ قَطْرَةً واحِدَةً ، لَـكُنَّا
أَسْعَدَ النَّاسِ . ولٰـكِنْ وا أَسفاهُ ! لا سَبِيلَ إلَى ذٰلك ، ولا مَعْدَى لَنا

(لا مَخْلَصَ) عَنْ سَفْكِ دَمِهِ مُرْغَمِينَ ، لِتَحْقِيقِ غايَتِنا النَّبِيلَةِ .
ولَوْلا تَفانِينا فى نُصْرَةِ الْواجِبِ وخِدْمَةِ الْوَطَنِ ، لَما فَكَّرْنا لَحْظَةً
واحِدَةً فِي الْإِقْدامِ عَلَى هٰذِهِ الْفَعْلَةِ النَّـكْراءِ . »

فَلَمْ يَجِدْ « كَسْياسُ » بُدًّا مِنْ مُوافَقَةِ « بُرُوتَسَ » على ما قالَ .

٥ — فى السَّاعةِ الثَّالثةِ

ثُمَّ دَقَّتِ السَّاعةُ الثَّالثةُ بَعدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، فقالَ « كَسْياسُ » :
« لَقد حانَ وَقتُ الِانْصرافِ ، فَوداعًا أَيُّها الصَّدِيقُ النَّبيلُ ،
حَقَّقَ اللهُ آمالَنا ، وأَنْجَحَ مَسْعانا .

ولٰـكِنِّي أَخْشَى أنْ يَتخلَّفَ « قَيصَرُ » فى هٰذا الْيَوْمِ عنِ الذَّهابِ
إلَى دارِ النِّيابَةِ ؛ فقَد أَصْبَحَ فى هٰـذِهِ الْأَيَّامِ يَخافُ ويَتَطَيَّرُ
(يَتَشاءَمُ) ، ورُبَّما لَزِمَ بَيْتَهُ اتِّقاءً لِما سَمِعَهُ مِنَ العَرَّافِ ، وما رآهُ
— اللَّيْلَةَ — مِنَ الْمُزْعِجاتِ . »

فقالَ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ : « لا يُهِمَّنَّكُمْ ذٰلك ؛ فإنِّى كَفِيلٌ
بِإخْراجِهِ مِنْ قَصْرِه فى هٰذا الْيَوْمِ ، وسأَعْرِفُ كَيْفَ أَتَملَّقُهُ وأَتَحبَّبُ

إِلَيْهِ ، وأُزَيِّنُ لَهُ الذَّهابَ إِلَى دارِ النِّيابَةِ ؛ حَتَّى لا تُفْلِتَ مِنْ أَيْدِينا هٰذِهِ الْفُرْصَةُ الثَّمِينَةُ النَّادِرَةُ . »

وهٰكَذا قَرَّ قَرارُهُمْ ، وَأَعَدُّوا عُدَّتَهُمْ لِلْفَتْكِ بِـ « قَيصر » فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ . ثُمَّ وَدَّعوا « بُرُوتَسَ » ، وَخَرَجُوا مَسْرورِين بما أَحْرَزُوه مِنْ فَوْزٍ وَشِيكٍ (نَجاحٍ قَرِيبٍ) .

٦ — حِوارُ « بُرْشا »

وَبَقِيَ « بُرُوتَسُ » غارِقًا فى وَساوِسِهِ وأَحْلامِهِ . وإِنَّهُ لَيُفَكِّرُ فِي هٰذِهِ الْمُؤامَرَةِ الْخَطِيرَةِ ، إِذْ دَخَلَتْ عليْهِ زَوْجُهُ « بُرْشا » .

فَدَهِشَ « بُرُوتَسُ » لِمَقْدَمِها ، ودُخُولِها عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُبَكِّرَةِ ، وسَأَلها مُتَعَجِّبًا :

« ماذا أَلَمَّ بِكِ ، أَيَّتُها الزَّوْجُ الْعَزِيزَةُ ؟ »

فقالَتْ لَهُ « بُرْشا » : « ما أَعْجَبَ ما يَبْدُو مِنْك مِنْ شُذُوذٍ فى هٰذا الْيَوْمِ ! تُرَى : أَيُّ شَيْءٍ قد هاجَ بَلْبالَك ، وأَثارَ هَمَّكَ وَغَمَّكَ ، وأَزْعَجَ خاطِرَكَ ؟ أيُّ حادِثٍ أَقَضَّ مَضْجَعَكَ (جَعَلَهُ

خَشِنًا لا تَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ) ؟ وَأَيُّ عارِضٍ غَيَّرَ مِنْ أَخْلاقِكَ ؟ وَما بالكَ أَبَيْتَ أَنْ تُجِيبَنِي لَيْلَةَ أَمْسِ ، حِينَ سَأَلْتُكَ عن مَصْدَرِ شَكْواكَ وَمَبْعَثِ أَلَمِكَ ؟ أَلَسْتُ أَنا زَوجَكَ الوَفِيَّةَ الْمُخْلِصَةَ الْبارَّةَ ؟ أَلَسْتُ جَدِيرَةً أَنْ تَثِقَ بِي ، وتُفْضِيَ إِلَيَّ بِدِخْلَتِكَ (تَبُوحَ لِي بِخَفِيِّ أَمْرِكَ) ؟ فَما بالكَ تَحْذَرُني ، وتَكْتُمُ عَنِّي مَصْدَرَ أَلَمِكَ ، وتَحْجُبُ دُوني سِرَّ مَتاعِبِكَ ؟ وَكَيْفَ تَتَسَلَّلُ مِنْ فِراشي خُفْيَةً دُونَ أَنْ تُخْبِرَنى بِما أَقَضَّ عَلَيْكَ مَضْجَعَكَ ؟ وَلِماذا تَنْتَفِضُ مَذْعُورًا — لَيْلَةَ أَمْسِ — حِينَ كُنَّا نَتَعَشَّى ، وَتَمْشِي فِي أَنْحاءِ الْغُرْفَةِ ضامًّا ذِراعَيْكَ إِلى صَدْرِكَ ، حائِرَ النَّظَراتِ ، يَكادُ الأَسَى يَفْتِكُ بِكَ ، وَأَنْتَ تَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ (تَتَنَفَّسُ طَوِيلًا مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ) ، وقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْكَ الذُّهُولُ والْحَيْرَةُ ؟ فلَمَّا سَأَلْتُكَ — فى رِفْقٍ وَحَنانٍ — عَمَّا أَلَمَّ بِكَ مِنَ الأَحْداثِ والْخُطوبِ ، ثارَ ثائِرُكَ ، وَنَظَرْتَ إِلَيَّ نَظْرَةً فيها أَلْفُ مَعْنًى من مَعانى القَسْوَةِ وَالْحِقْدِ والْكَراهِيَةِ . فَلَمَّا أَلْحَحْتُ عَلَيْكَ خاشَنْتَني (أَغْلَظْتَ عَلَيَّ فى الْكَلامِ) ، وَضَرَبْتَ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، ولُذْتَ بِالصَّمْتِ ، وَلَجَأْتَ

إِلَى السُّكَاتِ ، وأَشَرْتَ إِلَيَّ أَنْ أَذهبَ لِشأْنِي . فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا من الإِذْعانِ لإِشارتِكَ ، وقد أَيقنْتُ أَنَّنِي – إِذا أَصْرَرْتُ على سُؤَالِكَ – أَلْهبْتُ ثَوْرتَكَ ، وحَمَلْتُكَ على التَّمادِي فِي شرِّكَ . وكانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تقْسُو فيها عليَّ . فَلِمَ تَكْتُمُ عَنِّي – أَيُّها الزَّوْجُ النَّبيلُ – ما تُحِسُّهُ مِنْ آلامٍ ؟ أَلَسْتَ على ثِقَةٍ أَنَّنِي شَرِيكَتُكَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، وَحَلِيفَتُكَ فى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَنِّى لَكَ صادِقَةٌ أَمِينَةٌ ، وأَنَّكَ لِي نِعْمَ الزَّوْجُ البارُّ الوَفِيُّ الَّذِى لا أَعْدِلُ بِهِ بَدِيلًا ، والَّذِى هُوَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وأَثْمَنُ مِنَ الْحَياةِ بِكُلِّ ما تَحْوِيهِ مِنْ مَباهِجَ وَأَفْراحٍ . »

٧ — رَسُولُ الشَّرِّ

وما سَمِعَ « بُرُوتس » منْ زَوْجِهِ هٰذا العِتابَ الرَّقِيقَ ، حَتَّى لانَ جانِبُهُ ، وسُرِّيَ عَنْهُ ، وطابَ خاطِرُهُ . وهَمَّ بِأَنْ يُفْضِيَ إِلى زَوْجِهِ بِدِخْلَتِهِ (يُحَدِّثَها بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ) ، ولٰكِنَّهُ سَمِعَ طَرْقًا بِالْبابِ ؛ فَوَعَدَها بِأَنْ يُخْبِرَها بِجَلِيَّةِ الْأَمْرِ (حَقِيقَتِهِ) ، بَعْدَ أَنْ

يَسْتَقْبِلَ ذٰلِكَ الزَّائِرَ . ولَمْ يَلْقَ « بُرُوتَسُ » ضَيْفَهُ ، حَتى عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِـ « قَيْصَرَ » ، جاءَ إِلَيْهِ لِيَحْفِزَهُ إِلى الْخُرُوجِ مَعَهُ لِتَنفيذِ الْمُؤامرةِ الشَّنْعاء . فارْتَدَى « بُرُوتَسُ » ثِيابَهُ عَلَى عَجَلٍ ، وخَرَجَ معَ الزَّائِر ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ زَوْجَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَجُولُ فى نَفْسِهِ ، (يَتَرَدَّدُ فِيها) مِن الوَساوِسِ الْمُزْعِجَةِ .

وجَلَسَتْ « پُرْشا » تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ زَوْجِها قَلِقَةً مَهمومَةً ، وهِيَ لا تَعْلَمُ ما يَخْبَؤُهُ الْقَدَرُ مِنْ مُزْعِجاتٍ وأَحْداثٍ .

٨ — فى بَيْتِ « قَيْصَرَ »

أَمَّا « قَيْصَرُ » فقَدْ نَهَضَ مِن نَوْمِهِ مُبَكِّرًا ، وهُوَ مُفَزَّعُ الْقَلْبِ ، إِثْرَ ما رَآهُ مِنَ الْوَساوِسِ والأَحْلامِ الرَّاعِبَةِ (الْمُخِيفَةِ) فى تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ .

وقَدْ قَضَتْ زَوْجُهُ « كَلْبُرْنيا » لَيْلَةً هائِلَةً ، ونَهَضَتْ مِنْ نَوْمِها خائفةً مَذْعُورَةً مرَّاتٍ ثَلاثًا ، وهِيَ تَصِيحُ مُرَوَّعَةً مُفَزَّعَةً : « واغَوْثاهُ ! وامُصِيبَتاهُ ! أَدْرِكُوا « قَيْصَرَ » . لقَدْ أَحاطَ بِهِ الْفُتَّاكُ

الآثِمُونَ ، وأَنْشَبُوا فى جِسْمِهِ خَناجِرَهُمُ الْماضِيَةَ . أَدْرِكُوهُ فَإِنَّ الدِّماءَ تَتَدَفَّقُ مِنْ جَسَدِهِ ! »

ولَقَدْ ذُعِرَ كُلُّ مَنْ فى الْقَصرِ لِصَيْحاتِها ، وفَزِعوا لِفَزَعِها ، وحاولوا جُهْدَهُمْ أَنْ يُسَرُّوا عنْها ؛ فَذَهَبَتْ مَساعِيهِمْ أَدْراجَ الرِّياحِ (ضاعَتْ بِلا فائِدَةٍ) . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ ، حاوَلَتْ جُهْدَها أَنْ تَمْنَعَ « قَيْصَرَ » مِنَ الْخُرُوجِ فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ . ولٰكِنَّ « قَيْصَرَ » أَبَى أَنْ يَسْمَعَ لَها قَوْلًا ، وهَزَأَ بِكُلِّ ما رَآهُ وسَمِعَهُ مِنَ النُّذُرِ (النَّصائِحِ والعَلاماتِ الَّتى أُنْذِرَ بِها وحُذِّرَ) ؛ فَقالَتْ لهُ زَوْجُهُ :

« لَسْتُ مِمَّنْ يُعْنَى بِسَفْسافِ الْأُمُورِ وحَقِيرِها ، وتافِهِ الأَشْياءِ وصَغِيرِها . ولٰكِنَّنى أَشْعُرُ — مِنْ أَعْماقِ نَفْسِى — بِشُؤْمِ هٰذا الْيَوْمِ وَنَحْسِهِ ، وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ مُتَوَسِّلَةً أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ . »

فَقالَ لَها « قَيْصَرُ » : « إِنَّ الرَّجُلَ لا يَرْهَبُ الْمَوْتَ ، ولا يَجْزَعُ مِنْ مُواجَهَةِ الْكَوارِثِ ، ولِقاءِ الْمَصائِبِ . ولَيْسَ « قَيْصَرُ » مِمَّنْ يَخافُ الرَّدَى ، ويَخْشَى الْمَوْتَ . »

فَقالَتْ لهُ زَوْجُهُ : « لَقَدْ سَأَلْتُ الْعَرَّافِينَ ، فَحَذَّرُونى هٰذا

الْيَوْمَ ، وأَوْصَوْا جَمِيعًا بِمَنْعِكَ مِنَ الْخُرُوجِ ، حَتّى لا تَتَعَرَّضَ لِلْمَكارِهِ والْخُطُوبِ . »

فَقالَ لَها « قَيْصَرُ » هازِئًا : « لَسْتُ بِالْوالِهِ الْمُلْتاعِ (الْحَزِينِ الْمُتَوَجِّعِ) ، وَلَسْتُ بِالْجَبانِ الَّذِى يَمُوتُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ يَخافُ الْمَوْتَ دائِمًا . وإِنَّما أَنا حُرٌّ لا يَخْشَى شَيْئًا ، وَلا يَخْدَعُهُ ضَوْءُ النَّهارِ الَّذِى يَلْمَعُ بِهِ الرَّمْلُ فى الصَّحْراءِ ، فَيَظُنُّهُ النّاظِرُ — مِنْ بَعِيدٍ — ماءً ، وهُوَ سَرابٌ خَدّاعٌ . والْحُرُّ الْمِقْدامُ لا يَمُوتُ إِلّا مَرَّةً واحِدَةً حِينَ يَحْضُرُهُ أَجَلُهُ . »

ثُمَّ قالَ :

« يَحْيا الْجَبانُ بِقَلْبٍ والِهٍ فَزِعٍ
يَخْشَى الرَّدَى ، ويَهابُ الْمَوْتَ مُرْتاعا
يَمُوتُ أَلْفًا ، وَيَخْشَى — مِنْ مَهانَتِهِ —
شَرَّ الْحِمامِ ، ويَبْقَى الدَّهْرَ مُلْتاعا
والْحُرُّ لا يَرْهَبُ الْأَحْداثَ — إِنْ وَقَعَتْ —
وَلا يُرَجِّى سَرابًا لاحَ خَدّاعا

يَمُوتُ واحِدَةً — إنْ جاءَهُ أَجَلٌ —

ولَيْسَ يَرْهَبُ آلامًا وأَوْجاعا ! »

٩ — حُلْمُ « كَلْبُرْنيا »

فَقَصَّتْ عَلَيْهِ « كَلْبُرْنيا » حُلْمًا مُفَزِّعًا رَأَتْهُ فى تِلْكَ اللَّيْلَةِ ،

وتَوَسَّلَتْ إلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنِ الْخُرُوجِ فى هٰذا الْيَوْمِ ، وقالَتْ لَهُ :
« لا تَخْشَ — أَيُّها السَّيِّدُ الْجَليلُ — أنْ يَتَّهِمَكَ النَّاسُ

بِالْخَوْفِ ؛ فَإِنَّ شَجاعَتَكَ مَعْرُوفَةٌ ذائِعَةٌ . وَسَيَقُولُ النَّاسُ جَميعًا :
إنَّ « قَيْصَرَ » قَدْ عَدَلَ عَنِ الْخُروجِ إرْضاءً لِزَوْجِهِ ، وَبِرًّا بِها .
وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ خَوْفَ زَوْجِكَ — لا خَوْفَكَ أَنْتَ — هُوَ السِّرُّ فِي
امْتِناعِكَ مِنَ الذَّهابِ إلَى دارِ النِّيابَةِ . »

ثُمَّ رَكَعَتْ جاثِيَةً (جالِسَةً عَلَى رُكْبَتَيْها) ضارِعَةً إلَيْهِ ، مُسْتَشْفِعَةً
بِهِ أَلَّا يُخَيِّبَ رَجاءَها ، وَأَلَّا يَتْرُكَها نَهْبَ الْآلامِ وَالأَحزانِ (عُرْضَةً
لَها ، تَنْهَبُها وتَفْتَرِسُها) ، وَأَنْ يُسِرَّ إلَى « أَنْطُنْيُوسَ » بِالذَّهابِ إلى
دارِ النِّيابَةِ ، لِيُخْبِرَ نُوَّابَ « رُومَةَ » أَنَّ « قَيْصَرَ » قَدِ امْتَنَعَ
عَنِ الذَّهابِ إلَيْهِمْ ، لِأَمْرٍ طارِئٍ أَلَمَّ بِهِ . فَلَمْ يَرَ « قَيْصَرُ » بُدًّا
مِنْ تَلْبِيَةِ رَجائِها ، وَاعْتَزَمَ الْبَقاءَ فى قَصْرِهِ إرْضاءً لها .

١٠ — تَأْوِيلُ الرُّؤْيا

وَما اسْتَقَرَّ قَرارُهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ « دِسْياسُ » — أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ
بِهِ — يَدْعُوهُ إلَى الْخُرُوجِ .

فَقالَ لَهُ « قَيْصَرُ » : « لَقَدِ اعْتَزَمْتُ الْبَقاءَ فى بَيْتي — هٰذا

الْيَوْمَ — فَاذْهَبْ إِلَى نُوَّابِ « رُومَةَ » واحْمِلْ قَرارِى إِلَيْهِمْ . »

فَقالَتْ « كَلْبُرْنيا » لِلرَّسُولِ : « نَعَمْ ، وَخَبِّرْهُمْ أَنَّ « قَيْصَرَ » مَرِيضٌ لا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ . »

فَصاحَ « قَيْصَرُ » : « كَلَّا لا تَفْعَلْ ، يا « دِسْياسُ » ! »

ثُمَّ الْتَفَتَ « قَيْصَرُ » إِلَى زَوْجِهِ ، وَقالَ : « أَتُرِيدِينَنِي عَلَى أَنْ أَكْذِبَ ؟ أَلا ساءَ ما تَتَوَهَّمِينَ ، يا لله ! أَيَكْذِبُ « قَيْصَرُ » ؟ وهَلْ يَكْذِبُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ ؟ »

ثُمَّ صاحَ فِي صاحِبِهِ « دِسْياسَ » قائِلًا : « كَلَّا ، لَسْتُ مَرِيضًا ؛ فلا تَكْذِبْهُمُ الْقَوْلَ ، يا « دِسْياسُ » . حَسْبُكَ أَنْ تُخْبِرَهُمْ أَنِّي قَدِ اعْتَزَمْتُ الْبَقاءَ فِى الْبَيْتِ هٰذا النَّهارَ . »

فَقالَ لَهُ « دِسْياسُ » : « ماذا تَقُولُ ، يا سَيِّدِى الْقَيْصَرَ ؟

وَكَيْفَ يَتَلَقَّى النُّوَّابُ هٰذا القرارَ ؟ »

فَقالَ له « قَيْصَرُ » : « لَقَدْ رَأَتْ زَوْجِي — فِى اللَّيْلَةِ الْماضِيَةِ — حُلْمًا هائِلًا (مُخِيفًا) ، مَلَأَ قَلْبَها فَزَعًا ورُعْبًا ، إِذْ أَبْصَرَتْ فِى مَنامِها تِمْثالِي ، وقد فاضَ مِنْهُ مِائَةُ نَبْعٍ مِنَ الدِّماءِ الزَّكِيَّةِ (الطَّيِّبَةِ

الطَّاهِرَةِ) ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ جَمْهَرَةٌ مِنْ أَهْلِ « رُومَةَ » ، فَغَمَسَتْ أَيْدِيَها فِى الدِّماءِ مُبْتَهِجَةً مَسْرُورَةً .

وقَدْ هالَتْ زَوْجِي تِلْكَ الرُّؤْيا وَأَخافَتْها ، وَرَعَّبَتْها وفَزَّعَتْها ؛ فَأَصَرَّتْ عَلَى بَقائِى مَعَها فِى الدَّارِ ، طُولَ هٰذا النَّهارِ . »

فَضَحِكَ « دِسْياسُ » ، وقالَ لِـ « قَيْصَرَ » :

« أَيُّ فَزَعٍ فِى هٰذِهِ الرُّؤْيا السَّارَّةِ الْبَهِيجَةِ ؟ إِنَّ لِي رَأْيًا فِي تَأْوِيلِها (تَفْسِيرِها) غَيْرَ ما تَرَيانِ ؛ فَإِنَّ الْأَحْلامَ تُؤَوَّلُ (تُعَبَّرُ) عَلَى عَكْسِ ما يَراهُ الْحالِمُ ، وَلَسْتُ أَرَى فِى تِلْكَ الدِّماءِ الْمُراقَةِ (الْمَسْفُوحَةِ الْمَسْكُوبَةِ) — الَّتِي سالَتْ مِنْ تِمْثالِكَ ، واغْتَسَلَ فِيها أَشْرافُ « رُومَةَ » — إِلَّا دَلِيلًا جَدِيدًا عَلَى ما يَبْعَثُ رُوحُكَ الْعَظِيمُ — فِى أَبْناءِ « رُومَةَ » — مِنَ الْقُوَّةِ ، وما تُكْسِبُ دِماؤُكَ الزَّكِيَّةُ وَطَنَكَ مِنَ الْحَياةِ والْفُتُوَّةِ . والرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ ذٰلِكَ الْحُلْمَ الْبَهِيجَ يَدُلُّ عَلَى مَكانَتِكَ فِى قُلُوبِ الرُّومانِ ، إِذْ يُمَثِّلُ أَفْذاذَ « رُومَةَ » (أَفْرادَها الْمُمْتازِينَ) وعُظَماءَها ، مُقْبِلِينَ عَلَيْكَ ، مُعْجَبِينَ بِمَزاياكَ الباهِرَةِ ، راغِبِينَ فِي أَنْ يَظْفَرُوا بِأَثَرٍ مِنْ آثارِكَ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ . »

١١ — حيلةُ « دِسْياس »

فابْتَهَجَ «قَيْصَرُ» بِما سَمِعَ ، وسُرَّ مِنْ تأويلِ الرُّؤيا ، وعَدَلَ عَنِ ٱلْبَقاء فى دارِه .

فاسْتَأنَفَ « دِسْياسُ » كلامَهُ قائلًا :

« لَقَدِ اعْتَزَمَ سَراةُ « رُومَةَ » (أَشْرافُها) أَنْ يَمْنَحُوكَ التّاجَ فِى هٰذا الْيَوْمِ ، وَرُبَّما أَغضبَهُمْ تَخَلُّفُكَ عَنِ الْحُضُورِ ، وَرَأَوْا فِى ذٰلِكَ إزْراءً (تَحْقِيرًا) لَهُمْ ، واسْتِهانَةً بِهِمِ ، وَتَعالِيًا علَيْهِمْ ؛ فَعَدَلُوا عَنْ رَأْيِهِمْ فِيكَ ، وانْقَلَبَ حُبُّهُمْ إِيَّاكَ ضَغِينَةً عَلَيْكَ وحِقْدًا .

وَلَنْ يَقْبَلَ كائِنٌ كانَ أنْ يُصَدِّقَ أَنَّ « قَيْصرَ » يَخافُ لِخَوْفِ زَوْجِهِ ، وَيَنْسَى واجِبَهُ اتِّقاءً لِوَساوِسَ لا خَطَرَ لَها . وَلَنْ يَدُورَ بِخَلَدِ إِنسانٍ (لَنْ يَمُرَّ بخاطِرِ أَحَدٍ) ، أَنَّ « قَيصرَ » يَنسَى شَعْبَهُ ، مُسْتَسْلِمًا لأَضْغاثِ الْأَحْلامِ (أَخْلاطِها) .

وَلَقَدْ كُنْتُ — لَوْلا حُبِّيكَ (مَحَبَّتِي إِيّاكَ) وَوفائِى لكَ — مُقِرَّكَ على رَأْيِكَ ؛ ولٰكِنَّنى أَخْشَى — إِنْ فَعَلْتُ ذٰلِكَ — أَنْ أَكُونَ مِنَ الأَثَمَةِ الْغادِرِينَ ! »

فَخَجِلَ « قَيصَرُ » مِمّا سَمِعَ ، وقرَّرَ الذَّهابَ — مِنْ فَوْرِهِ — إِلَى دارِ النِّيابَةِ . وارْتَدَى عَباءَتَهُ ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ ؛ فَرَأَى بَقِيَّةَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ قادِمِينَ عَلَى دارِهِ — وعلى رَأْسِهِمْ « بُرُوتَسُ » — يَدْعُونَهُ لِمُرافَقَتِهِمْ إِلَى دارِ النِّيابَةِ .

ثُمَّ جاءَ صَدِيقُهُ الْوَفِىُّ « أَنْطُنْيُوسُ » ، وخَرَجُوا جَمِيعًا مَعَ « قَيصَرَ » ، وَقَدْ سُرِّىَ عَنْهُ ، وَزالَتْ وَحْشَتُهُ ، وذَهَبَ ما كانَ يُساوِرُهُ منَ الْمَخاوِفِ .

١٢ — جزَعُ « بُرْشا »

أَمّا « بُرْشا » — زَوْجُ « بُرُوتَسَ » — فَقَدِ اشْتَدَّ جَزَعُها عَلَى زَوْجِها . وَقد أَدرَكَتْ — مِمّا رَأَتْهُ مِنَ الِاضْطِرابِ عَلَى أَسارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) — أَنَّهُ قادِمٌ عَلَى أَمْرٍ جَلَلٍ (عَظِيمٍ) ، وخَشِيَتْ أَنْ يُصِيبَهُ سُوءٌ . فَلَمّا بَلَغَتِ السّاعَةُ التّاسِعَةَ ، أَمَرَتْ خادِمَها أَنْ يَذْهَبَ إِلى دارِ النِّيابَةِ لِيُطَمْئِنَها .

* * *

ولٰكِنَّها سَمِعَتْ صَوْتًا خافِتًا ؛ فَأَرْهَفَتْ أُذُنَيْها ، حَتَّى داناها الصَّوْتُ ؛ فَرَأَتْ عَرّافًا يَقْتَرِبُ ، فَنادَتْهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْها . فَسَأَلَتْهُ عَمَّا يَخْبَؤُهُ الْقَدَرُ لِزَوْجِها مِنَ الْأَحْداثِ .

فَقالَ لَها الْعَرَّافُ : « أَرَى أَنَّ زَوْجَكِ يَهُمُّ بِعَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيماتِ الْأُمُورِ ، وَأَخْشَى أَنْ يَلْقَ — مِنَ الْمَكارِهِ والْخُطُوبِ — ما لا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ . »

فَقالَتْ لَهُ « پُرْشا » مَحْزُونَةً خائِفَةً :

« هَلْ خَرَجَ « قَيصرُ » مِنْ دارِهِ ؟ »

فَأَجابَها الْعَرَّافُ :

« لَقَدْ حانَ مَوْعِدُ خُرُوجِهِ ، وَسَأَذْهَبُ إِلَيْهِ ؛ لِأُحَذِّرَهُ عاقِبَةَ هٰذا الْيَوْمِ الْمَشْئُومِ . »

الفصل الثالث

١ — النَّذيرُ الأوَّل

أمَّا « قَيْصَرُ » فَقَدْ سارَ مَعَ رِفاقِهِ الْغادِرِينَ — وَهُوَ لا يَعْلَمُ ما تخبَؤُهُ لَهُ الأَقْدارُ — حَتَّى بَلَغُوا دارَ النِّيابَةِ .

وَما سارَ « قَيْصَرُ » خَطَواتٍ قَلِيلَةً ، حَتَّى داناهُ فَيْلَسُوفٌ رُومِيٌّ (يُونانيٌّ) . وكانَ هٰذا الْفَيْلَسُوفُ الرُّومِيُّ يُحِبُّ « قَيْصَرَ » وَيُخْلِصُ لَهُ ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَرَقَةً يُحَذِّرُهُ فِيها غَدْرَ أَصْحابِهِ الْمُحِيطِينَ بِهِ .

فَقالَ لَهُ « قَيْصَرُ » : « أُرْجِئُ هٰذِهِ الْوَرَقَةَ إِلى ما بَعْدَ هٰذا الْيَوْمِ . » فَقالَ لهُ الْفَيْلَسُوفُ النّاصِحُ : « بِرَبِّكَ — يا سَيِّدِي الْقَيْصَرَ — عَجِّلْ بِقِراءَتِها ؛ فَإِنَّ فِيها أَمْرًا خَطِيرًا يَعْنِيكَ ، وَيُهِمُّكَ أَنْ تَتَعَرَّفَهُ . » فَقالَ لَهُ « قَيْصَرُ » : « ما دامَتِ الْوَرَقَةُ لا تَعْنِي سِوايَ ، وَلا تَهُمُّ غَيْرِي ، فَإِنِّي مُرْجِئٌ رُؤْيَتَها ، وَمُؤَخِّرٌ قِراءَتَها حَتَّى أَنْتَهِيَ مِنْ واجِباتِ الدَّوْلَةِ وفُرُوضِها . »

فَلَمّا رَأَى « كَسْياسُ » الدّاهِيَةُ الذَّكِيُّ إِلْحاحَ ذٰلِكَ النّاصِحِ ، خَشِيَ أَنْ تَسُوءَ العاقِبَةُ ، وَتَوَجَّسَ مِنهُ شَرًّا ؛ فَقالَ لَهُ غاضِبًا :

« حَذارِ أَنْ تُلْحِفَ (إِيّاكَ أَنْ تُلِحَّ) عَلَى الْقَيْصَرِ الْعَظِيمِ ! وَحَسْبُكَ أَنَّهُ قد وَعَدَكَ بِالنَّظَرِ فى أَمْرِكَ . »

وانتَهَزَ « كَسْياسُ » الْماهِرُ هٰذِهِ الفُرْصَةَ ، فَأَخَذَ الوَرَقَةَ ، واسْتَبْدَلَ بِها أُخْرَى ؛ لِيَأْمَنَ كُلَّ شَرٍّ .

٢ — النَّذيرُ الثّانِي

وَسارَ « قَيْصَرُ » خَطَواتٍ قَلِيلَةً أُخْرَى ، فلمَحَ العَرّافَ الَّذِي حَذَّرَهُ ذٰلِكَ الْيَوْمَ — مِنْ قَبْلُ — فَقالَ لهُ « قَيْصَرُ » باسِمًا :

« أَلَيْسَ هٰذا الْيَوْمُ مُنْتَصَفَ « مارِسَ » الَّذِي حَذَّرْتَنِي إِيّاهُ؟ »

فَقالَ لهُ الْعَرّافُ : « إِنَّ الْيَوْمَ — يا سَيِّدِيَ القَيْصَرَ — لَمّا يَنْتَهِ ، وَلا زِلْتُ أُوصِيكَ بِالْيَقَظَةِ والْحَذَرِ . »

فَقالَ لهُ « قَيْصَرُ » هازِئًا :

« ما أَنا بِحاجَةٍ إِلى تَحْذِيرِكَ ؛ فَإِنَّ « قَيْصَرَ » لا يَخْشَى كائِنًا كانَ . »

٣ – ضَراعَةُ الْمُؤْتَمِرِينَ

ثُمَّ تَبَوَّأَ « قَيْصَرُ » – سَيِّدُ الدُّنْيا – مَجْلِسَهُ ، تَحْتَ تِمْثالِ « بُمْبِي » ، وَأَحاطَ بِهِ شُيُوخُ « رُومَةَ » .

وَتَأَهَّبَ الْمُؤْتَمِرُونَ بِهِ ، واسْتَعَدُّوا لإِنْفاذِ جَرِيمَتِهِمْ .

فاقْتَرَبَ أَحَدُهُمْ مِنْ « أَنْطُنْيُوسَ » – صَدِيقِ الْقَيْصَرِ الْحَمِيمِ – وَشَغَلَهُ بِشَتَّى الْحَدِيثِ ، واسْتَدْرَجَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ مَجْلِسِ « قَيْصَرَ » ؛
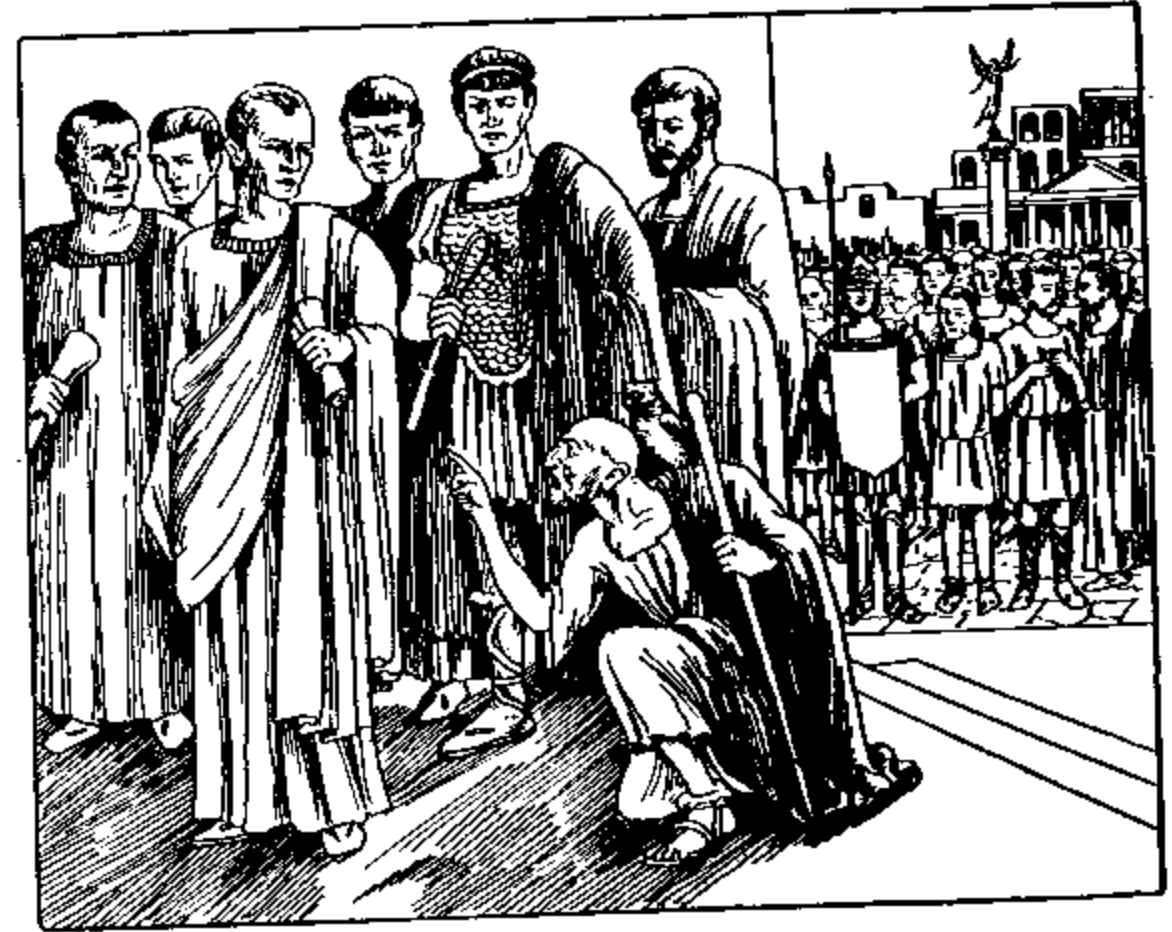
لِيُمَكِّنَ رِفاقَهُ مِنِ اغْتِيالِ سَيِّدِ « رُومَةَ » وَزَعِيمِها الْأَوْحَدِ . وَتَقَدَّمَ « مَتِيلُوسُ » مُتَوَجِّهًا إِلَى « قَيْصَرَ » ؛ فَرَكَعَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ضارِعًا ، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْ أَخِيهِ ، وَيُرْجِعَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَنْفاهُ السَّحِيقِ (الْبَعِيد) .

فَغَضِبَ عَلَيْهِ « قَيْصَرُ » ، وَقالَ لَهُ : « إِنَّ الْمَهانَةَ وَالْمَذَلَّةَ وَالضَّراعَةَ لا تَلِيقُ بِالرِّجالِ ، وَلَيْسَ « قَيْصَرُ » بِناقِضٍ حُكْمَهُ ، وَلا راجِعٍ عَنْهُ ، وَلا مُتَرَدِّدٍ فى أَمْرِهِ . »

فانْضَمَّ إِلَيْهِ بَقِيَّةُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِـ « قَيْصَرَ » ، وَرَكَعُوا – واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ – يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ بِأَخِيهِ ، وَالْعَفْوَ عَنْ زَلَّتِهِ (التَّجاوُزَ عَنْ خَطَئِهِ) ؛ فَلَمْ يَزْدَدْ إِلَّا عِنادًا وَإِصْرارًا .

٤ – الْأُغْنِيَّةُ الْأَخِيرَةُ

وَاقْتَرَبَ « بُرُوتَسُ » مِنْ صَدِيقِهِ « قَيْصَرَ » مُسْتَعْطِفًا ، راجِيًا أَنْ يَقْبَلَ الْتِماسَ صاحِبِهِ ، وَيُرْجِعَ إِلَيهِ أَخاهُ مِنْ مَنْفاهُ .

فَقالَ لَهُ : « لَيْسَ مِثْلُ « قَيْصَرَ » مَنْ يَلِينُ لِلرَّجاءِ ، أَوْ يَحُولُ

عَنْ عزْمِهِ . وما كانَ « قَيصرُ » لِينْقُضَ الْيَوْمَ ما أبْرَمَهُ بالْأَمْسِ .

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « قَيْصرُ » كلامَهُ ، مَزْهُوًّا تائِهًا ، وقالَ :

« إنَّ نُجُومَ السَّماءِ تَظْهَرُ مُؤْتَلِقاتٍ (تَبْدُو مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً) ، ولٰكِنَّ بَيْنَها نَجْمًا قُطْبِيًّا يَهْدِي الْحائِرِينَ ، ويَثْبُتُ ثَباتَ الرّواسِي (الْجِبالِ) . وكَذٰلِكَ الرِّجالُ : يَظْهرُونَ وقَدْ تَفَرّقَتْ أهْواؤُهُمْ ، واخْتَلَفَتْ نَزَعاتُهُمْ ومَذاهِبُهُمْ . ولٰكِنَّ « قَيْصَرَ رُومَةَ » — في هِمَّتِهِ الشَّمَّاءِ (الْعالِيَةِ) — كَذٰلِكَ النَّجْمِ الْقُطْبِيِّ في اللَّيْلَةِ الدَّجْياءِ (الشَّديدَةِ الظُّلْمَةِ) ، فَلا كِفاءَ لهُ (لا نَظِيرَ) . وإنَّ « قَيْصَرَ رُومَةَ » لَأَلْمَعِيٌّ (قَوِيُّ الذَّكاءِ ، صادِقُ الْفِراسَةِ والظَّنِّ) ، وَإِنَّهُ لَذُو مَضاءٍ (صاحِبُ قُوَّةٍ وَنَفاذٍ) . فَإِنْ أَقَرَّ أَمْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ صُرُوفُ الْقَضاءِ (حَوادِثُ الْأَيَّامِ) أَنْ تَرُدَّهُ عَنْهُ ، وتَقِفَهُ دُونَهُ . »

ثُمَّ قالَ :

« هٰذِي نُجُومُ السَّماءِ مَنْثُورَةً في الْفَضاءِ
يَشِعُّ مِنها ضِياءٌ في سائِرِ الْأَرْجاءِ
تَدُورُ مُؤْتَلِقاتٍ ، تَجْرِي لِغَيْرِ انْتِهاءِ

وثَمَّ ـ في الْقُطْبِ ـ نَجْمٌ يَبْدُو لِعَيْنِ الرّائِي
بالنُّورِ يَهْدِي الْحَيارَى في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ
ثَبْتٌ ثَباتَ الرّواسِي باقٍ بَقاءَ السَّماءِ

* * *

وفي الرِّجالِ أُلُوفٌ مُفَرَّقُو الْأَهْواءِ
مِثْلُ النُّجُومِ تَراءَتْ مَوْفُورَةَ الْأَضْواءِ
لٰكِنَّ « قَيْصَرَ رُوما » ذا الْهِمَّةِ الشَّمَّاءِ
يَسْمُو عَلَيْهِمْ جَمِيعًا في رِفْعَةٍ واعْتِلاءِ
كَساطِعِ الْقُطْبِ يَهْدِي في اللَّيْلَةِ الدَّجْياءِ
يَجِلُّ عَنْ كُلِّ شِبْهٍ فَما لهُ مِنْ كِفاءِ !

* * *

لا يَنْقُضُ النَّاسُ رَأْيًا لِسَيِّدِ الْعُظَماءِ
الْأَلْمَعِيِّ الْمُفَدَّى الْأَوْحَدِيِّ الذَّكاءِ
ومَنْ كَـ « قَيْصَرِ رُوما » في عَزْمَةٍ ومَضاءِ
إنْ راحَ يُبْرِمُ أَمْرًا أَعْيا صُرُوفَ الْقَضاءِ ! »

٥ – مَصْرَعُ « قَيْصَرَ »

وكانَتْ هٰذِهِ الْكلِماتُ آخِرَةَ حَياةِ « قَيْصَرَ » ، وخاتِمَةَ صَحيفَتِهِ فى الْوُجُودِ ؛ فما أَتمَّها حَتَّى صاحَ « كَسْكا » ثائرًا :

« تَكلَّمِي الآنَ ، يا يَدِي . . . ! »

ثُمَّ طعَنَهُ بِخِنْجَرِهِ طَعْنَةً نَجْلاءَ (واسعَةً) ، وتابَعهُ رِفاقُهُ بِخَناجِرِهِم .
ثُمَّ سَدَّدَ « بُرُوتَسُ » طَعْنَةً إلى صديقِهِ ، فَذَهِلَ « قَيْصَرُ » مِمَّا رَأَى ، وقال لِـ « بُرُوتَسَ » مَدْهوشًا :

« حتى أَنْتَ يا « بُرُوتَسُ » ! الآن يَمُوتُ « قَيْصَرُ » ! »

ثمّ فاضَتْ رُوحُ « قَيْصَرَ » : زَعيمِ « رُومَةَ » وسَيِّدِها !

٦ – شَناعَةُ الهَوْلِ

ذُعِرَ شُيوخُ « رُومةَ » وسَراتُها (أَعْيانُها) ، وسَوادُ أَهْلِيها (عامَّةُ شَعْبِها) وجُمْهورُ ساكِنِيها ، واشْتدَّ جَزَعُهُمْ لِمَصْرَعِ « قَيْصَرَ » الْعَظيمِ ، وَصاحَ الْقَتَلَةُ هاتِفِينَ باسْمِ الْحُرِّيَّةِ ، لِيُخَفِّفُوا وَقْعَ الْمُصابِ على قُلُوبِ النّاسِ .

وَاشْتَدَّ هِياجُ الْمَدِينَةِ ، واسْتَوْلَى الذُّعْرُ على الرِّجالِ والنِّساءِ
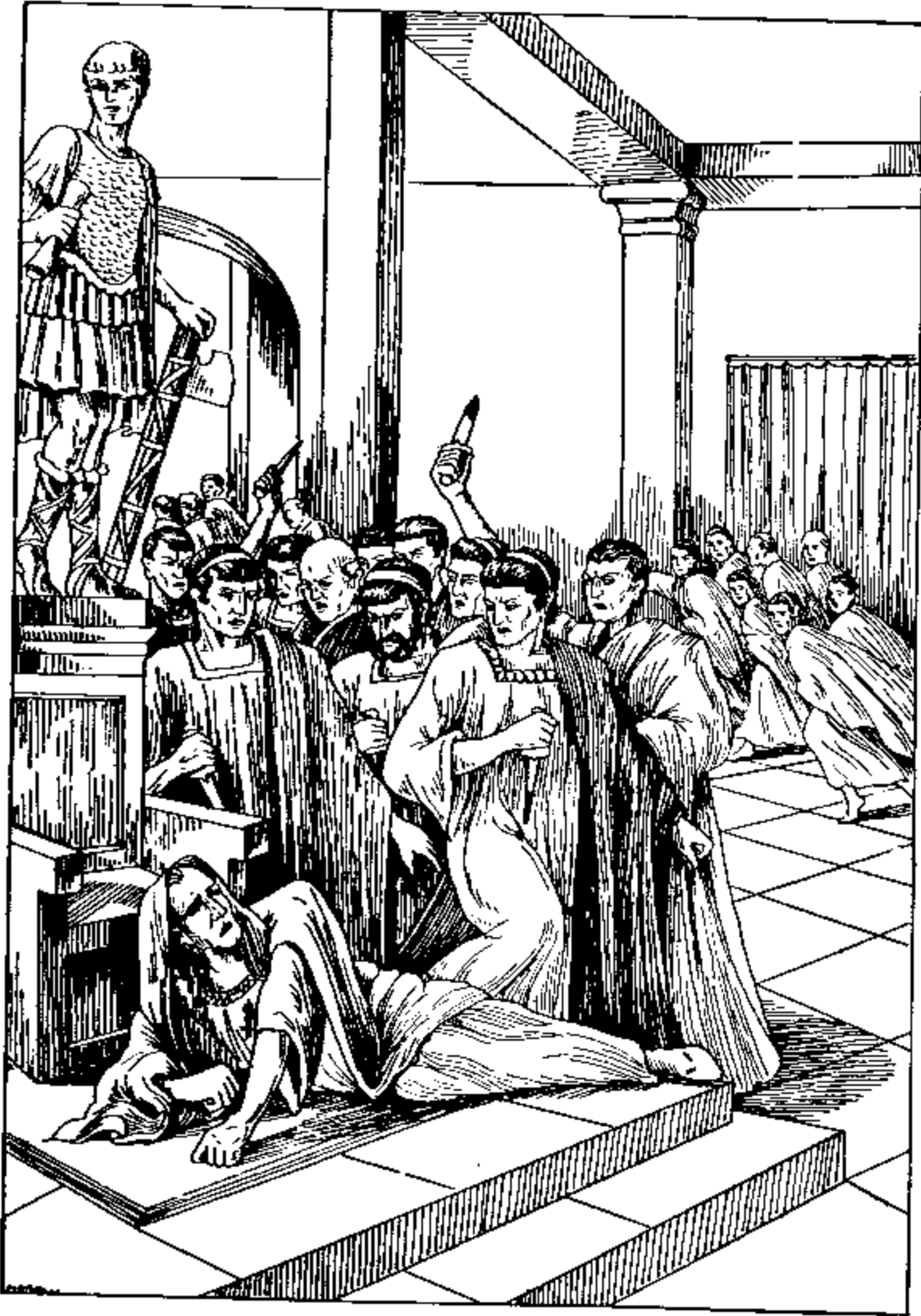
والأَطْفالِ جَميعًا ، حَتى سَلَبَهُمُ الْخَوْفُ عُقُولَهُمْ : فَجَرَوْا مَشْدُوهِينَ

ذاهِلِينَ ، وَصاحُوا مِنْ فَرْطِ الْأَسَى وَالْخَوْفِ ، فَمَلَئُوا الفضاءَ بِصَيْحاتِهِمُ الْمُفْزِعةِ .

وَلَمْ يَجِدِ الْمُؤْتَمِرُونَ — أَمامَهُمْ — وَقْتًا يَتَشاوَرُونَ فيهِ ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ « بُرُوتَسُ » أَنْ يَشْهَرُوا سُيُوفَهُمْ ، ويَغْمِسُوا سَواعِدَهُمْ فى دِماءِ « قَيْصَرَ » ، هاتِفِينَ بالسَّلامِ والْحُرِّيَّةِ ، مُتَغَنِّينَ بِمَجْدِ « رُومَةَ » ، وخَلاصِها مِنْ نِيرِ الظُّلْمِ والاسْتِبْدادِ .

٧ — مَقْدَمُ « أنطنيوسَ »

وَعَلِمَ « أَنْطُنْيوسُ » بِمَصْرَعِ « قَيْصَرَ » . فَأَقْبَلَ على دارِ النِّيابةِ مُسْرِعًا ، وَتَظاهَرَ أَمامَ « بُروتَسَ » وأَصْحابِهِ بِقِلَّةِ الْمُبالاةِ بِما حَدَثَ ، وَأَثْبَتَ لَهُمْ أَنَّهُ مُجَدِّدٌ عُهُودَهُ وَمَواثيقَهُ مَعَهُمْ ، إذا اسْتَطاعُوا أن يُقْنِعُوهُ بِصَوابِ ما فَعلوهُ .

فَقالَ لهُ « بُرُوتَسُ » : « لكَ عَلَيْنا أن نَشْرَحَ الأَسْبابَ الّتى حَفَزَتْنا إلى الْفَتْكِ بِـ « قَيْصَرَ » . وَنَحْنُ واثِقُونَ أَنّكَ سَتَرَى رأْيَنا ؛ لِأَنّ قُوّةَ بُرهانِنا ، وَصِدْقَ حُجَّتِنا : كَفِيلانِ بِإِقْناعِ أَقْرَبِ النّاسِ إِلَى « قَيْصرَ » ولَوْ كانَ ابْنَهُ . »

ونظَرَ « أَنْطُنْيُوسُ » ، فَرَأَى جُثَّةَ « قَيْصَرَ » هامِدَةً مُضَرَّجَةً (مُلَطَّخَةً) بالدِّماءِ ؛ فَلَمْ يَتَمالَكْ أَنْ يَحْزَنَ على صديقِهِ الْحَميمِ ، وَيُذْرِفَ الدَّمْعَ من عَيْنَيْهِ . وَلٰكِنَّهُ لم يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَ خَطَرَ الْمَوْقِفِ ؛ فاسْتَعْصَمَ بِالْحَزْمِ والْجَلَدِ ، والْتَفَتَ إِلى « بُرُوتَسَ » ورِفاقِهِ ، وقالَ :

« إذا كُنْتُمْ حاقِدِينَ علَيَّ : فإِنِّى أَطْلُبُ إِلَيْكُم أَنْ تَقْتُلُونِى ، وتُرَوُّوا — مِنْ دَمِى — سُيوفَكُمُ الَّتى فَتَكَتْ بِـ « قَيْصَرَ » ! »

فقالَ لَهُ « بُرُوتَسُ » : « لَسْنا نَشُكُّ فى إِخْلاصِكَ لَنا ، يا « أَنْطُنْيُوسُ » . وما نَحْنُ بِسَفّاحِينَ ، ولا مُتَعَطِّشِينَ إِلَى الدِّماءِ . ولٰكِنَّنا قَتَلْنا « قَيْصَرَ » فِى سَبِيلِ الْوَطَنِ ، مُنْتَصِرِينَ — بِذٰلِكَ — لِلْحُرِّيَّةِ ، ولَمْ نَقْتُلْهُ لِبُغْضٍ كامِنٍ فى نُفُوسِنا ، أَوْ حِقْدٍ مُتَأَصِّلٍ فِى قُلُوبِنا . »

٨ — خُطْبَةُ « بُرُوتَسَ »

فقالَ « أَنْطُنْيُوسُ » : « إِنِّى مُعاهِدُكُمْ عَلَى الْوَفاءِ ؛ فَهَلْ تَأْذَنُونَ لِى

أنْ أَبْكِيَهُ ، وأَرْثِيَهُ ، وأُعَدِّدَ مَناقِبَهُ (أذْكُرَ مَحاسِنَهُ) ؟ فهُوَ صَدِيقٌ لَكُمْ ولِي عَلَى السَّواءِ . »

فقالَ لهُ « بُرُوتَسُ » : « قُلْ فيهِ ما شِئْتَ ، بعْدَ أنْ أُهَدِّئَ الْجُمْهورَ الثَّائِرَ الصَّاخِبَ ، وأُسَكِّنَ مِنْ رُوعِه (قَلْبِهِ) . »

وانْتَحَى « كَسْياسُ » بِصاحِبِهِ « بُرُوتَسَ » ، وحاوَلَ أنْ يَثْنِيَ مِنْ عَزْمِهِ على مُسالَمَةِ « أنْطُنْيُوسَ » ، ويُحَذِّرَهُ الانْخِداعَ بما زَوَّرَهُ (زَيَّنَهُ) مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ (لَيِّنِ الْكلامِ) ؛ فلَمْ يَسْمَعْ لهُ « بُرُوتَسُ » قوْلًا ، وأثْبَتَ لهُ أنَّ « أنْطُنْيُوسَ » لنْ يُسِيءَ إليْهِمْ فى خِطابِهِ . وخَتَمَ « بُرُوتَسُ » حِوارَه قائلًا :

« لَنْ يَجْرُؤَ « أنْطُنْيُوسُ » عَلَى اتِّهامِنا ، ولَنْ يَتَعَدَّى خِطابُهُ رِثاءَ « قَيْصَرَ » ، وتَعْدادَ مَناقِبِهِ (التَّمَدُّحَ بِخِلالِهِ) ، والثَّناءَ عَلَى أخْلاقِهِ . »

ثُمَّ افْتَرَقَ « بُرُوتَسُ » و « كَسْياسُ » ، لِيَخْطُبا سَوادَ الْجُمْهُورِ (عامَّتَهُ) ، ويُهَدِّئا خَواطِرَهُ الثَّائِرَةَ .

واعْتَلَى « بُرُوتَسُ » مِنَصَّةَ الْخَطابَةِ ، فَصاحَ فى الْحاضِرِينَ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ (عالٍ) ، وأنشأَ يَقُولُ :

« لقَدْ كانَ « قَيْصَرُ » — كَما عَلِمْتُمْ — رَجُلًا عَظِيمًا ، كَبِيرَ الْقَلْبِ ، مَوْفُورَ الْحَظِّ ، ولَمْ يُحِبَّهُ أحَدٌ مِنَ النَّاسِ أكْثَرَ مِمَّا أحْبَبْتُهُ أنا . ولَكِنَّ طَمَعَ « قَيْصَرَ » هُوَ الَّذِى أحْفَظَنِى عليْهِ وأغْضَبَنِى ، وبَدَّلَ حُبِّيهِ (مَحَبَّتِي لهُ) كَراهِيَةً ومَقْتًا . لَقَدْ فَتَكْنا بهِ لِأَنَّهُ كانَ طَمَّاعًا . لقَدْ حاوَلَ أنْ يَسْتَعْبِدَكُمْ — وأنْتُمْ أحْرارٌ — فَثُرْنا — فى وَجْهِهِ — انْتِصارًا لِحُرِّيَّتِكُمْ ، وَقَتَلْناهُ لِنُنْقِذَكُمْ مِن نِيرِ الطُّغْيانِ ، وَنُخَلِّصَكُمْ مِنْ بَراثِنِ الظُّلْمِ (أصابِعِهِ) . فهَلْ أثِمْنا فِيما فَعَلْنا ؟ إنْ كانَ فِيكُمْ رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ بهِ الْعُقُوقُ لِوَطَنِهِ ، والاسْتِهانَةُ بِحُرِّيَّتِهِ ، حَدَّ السُّخْطِ عَلَى مُحارَبَةِ الاسْتِعبادِ وَالذُّلِّ ؛ فَلْيُكاشِفْنا بِرَأْيِهِ ، وَلْيَتَكَلَّمْ أمامَنا ، وَلْيَتَّهِمْنا بِأنَّنا قدْ أسَأْنا فِيما فَعَلْنا . »

فَصَفَّقَ الْجُمْهُورُ لِلْخَطِيبِ البارِعِ الْمُفَوَّهِ : « بُرُوتَسَ » ، وَأُعْجِبُوا بِفَصاحَتِهِ وَقُوَّةِ حُجَّتِهِ ، وَتَعالَى هُتافُ الْحاضِرِينَ بِحَياتِهِ .

٩ — خُطْبَةُ « أنطنيُوسَ »

وَظَهَرَ « أنْطُنيوسُ » — حينَئِذٍ — وَهُوَ يَحْمِلُ جُثَّةَ « قَيْصَرَ » .

فَأَشارَ « بُرُوتَسُ » إلى الْحاضِرِينَ أَنْ يَكُفُّوا عنْ هُتافِهِمْ ، وَقالَ لَهُمْ : « الْبَثُوا (ابْقَوْا) فى أَماكِنِكُمْ ، لِتَسْمَعُوا رِثاءَ « أَنْطُنْيُوسَ » لِصاحِبِهِ ، فقَدْ أَذِنَّا لهُ فى ذٰلِكَ . »

ثُمَّ خَرَجَ « بُرُوتَسُ » ، وَتَرَكَ خَصْمَهُ « أَنْطُنْيُوسَ » يَخْطُبُ الْجُمْهورَ ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ سَيُلْهِبُ نارَ ثَوْرَتِهِ ، وَيُذْكِى ضِرامَ حِقْدِهِ .

وما ارْتَقَى « أَنْطُنْيُوسُ » الْمِنْبَرَ حَتى قالَ :

« أَصْدِقائِى وَأَصْحابِى أَبْناءَ « رُومَةَ » : أَعِيرُونى أَسْماعَكُمْ ؛ فَقَدْ جِئْتُ لِأَحْتَفِلَ بِدَفْنِ « قَيْصَرَ » ، وَلَمْ أَجِئْ لِأَمْتَدِحَ فَعالَهُ ، وَأُثْنِىَ عَلَى مَزاياه ؛ فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسانِ — وَحْدَهُ — أَحْسَنُ ثَناءٍ يُخَلِّدُهُ ، وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ ، إِنْ كانَ صالِحًا . لَقَدْ حَدَّثَكُمْ « بُرُوتَسُ » أَنَّ « قَيْصَرَ » كانَ طَمَّاعًا ، و « بُرُوتَسُ » رَجُلٌ شَرِيفٌ . فَإِذا صَحَّ ما يَقُولُ « بُرُوتَسُ » ؛ فَقَدْ لَقِىَ « قَيْصَرُ » جَزاءَهُ الْعادِلَ ، وَاسْتَحَقَّ الْمَوْتَ ، بِما قَدَّمَتْ يَداهُ مِنْ شُرُورٍ وَآثامٍ .

لَقَد أَذِنَ لِى « بُرُوتَسُ » فى أَنْ أَرْثِىَ « قَيْصَرَ » ، وَ « بُرُوتَسُ » رَجُلٌ شَرِيفٌ . وَقَدْ كانَ « قَيْصَرُ » نِعْمَ الصَّدِيقُ الْوَفِىُّ الْعادِلُ الرَّحِيمُ ،
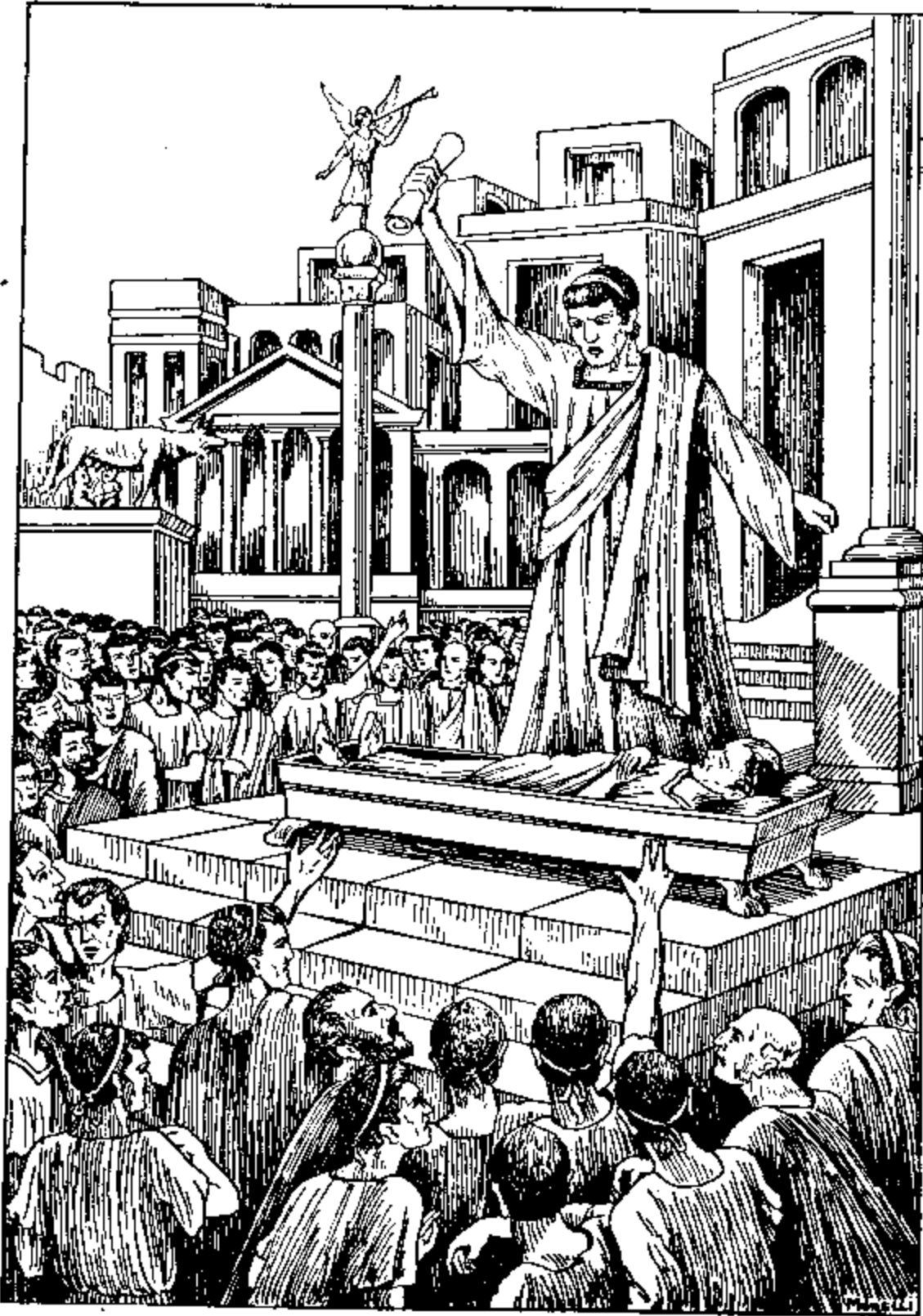
وَلٰـكِنَّ « بُرُوتَسَ » يقولُ : « إنَّ « قَيصَرَ » رَجُلٌ طَمَّاعٌ . »
وَ « بُرُوتسُ » رَجُلٌ شريفٌ !

لَقَدْ كانَ « قَيْصَرُ » يُغْدِقُ عَليكُمُ الْمالَ (يُفيضُهُ بلا حِسابٍ) ، وَيَبْكِي رَحْمَةً بِالْفَقيرِ ، وَيُؤَسِّي الضَّعيفَ . فَهَلْ تَعُدُّونَ مِثْلَ هٰذا الرَّجُلِ طَمّاعًا ؟ وَلٰـكِنَّ « بُرُوتَسَ » يقولُ : « إنَّ « قَيصَرَ » كانَ طَمَّاعًا . » وَ « بُرُوتسُ » رَجُلٌ شريفٌ ! لَقَدْ قَدَّمْتُ التَّاجَ لِـ « قَيصَرَ » — مَرَّاتٍ ثَلاثًا — فَرَفَضَهُ « قَيْصَرُ » ، وَلَمْ يَقْبَلْهُ . فَهَلْ كانَ « قَيْصَرُ » طَمّاعًا ؟ وَلٰـكِنَّ « بُرُوتَسَ » يَقُولُ : « إنَّ « قَيْصَرَ » كانَ طَمّاعًا . » و « بُرُوتَسُ » رَجُلٌ شَرِيفٌ !
لَسْتُ أُكَذِّبُ « بُرُوتَسَ » فِيما يَقُولُ ، ولٰـكِنَّنِي أَكْتَفِي بِتَقْرِيرِ ما أَعْرِفُهُ — وتَعْرِفُونَهُ — عَنْ « قَيصَرَ » :

لَقَدْ أَحْبَبْتُمْ « قَيصَرَ » — كَما أَحَبَّكُمْ — فَلِماذا أَحْبَبْتُمُوهُ ، وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ ، وهَتَفْتُمْ بِاسْمِهِ ؟ وَكَيْفَ لا تَبْكُونَ الْيَوْمَ مَصْرَعَ مَنْ أَحْبَبْتُمُوهُ وَأَحَبَّكُمْ ؟ ها هِيَ ذِي وَصِيَّةُ « قَيْصَرَ » ، الَّتِي أَوْدَعَها حُبَّهُ وَإِخْلاصَهُ لَكُمْ ؛ فَآهٍ لَوْ عَلِمْتُمْ ما تَحْوِيهِ ! إِذَنْ لَمَزَّقَ الْأَسَى

قُلُوبَكُمْ ، وَقَطَّعَ الْحُزْنُ أَفْئِدَتَكُمْ . . . ! »

١٠ — وَصِيَّةُ « قَيْصَرَ »

وما وَصَلَ « أَنْطُنْيُوسُ » إلى هٰذا الحَدِّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى تَهَدَّجَ صَوْتُهُ (ضَعُفَ وارْتَعَشَ) ، وَبَكَى ؛ فاسْتَبْكَى سامِعِيهِ ، وَصاحُوا جَمِيعًا ، يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَتْلُوَ عَلَيْهِمْ وَصِيَّةَ « قَيْصَرَ » .
فَقالَ « أَنْطُنْيُوسُ » : « كَلَّا ، لا سَبِيلَ إِلَى هٰذا ، فَإِنِّي أُشْفِقُ (أَخافُ) عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَقَطَّعَ قُلوبُكُمْ حُزْنًا ، وتَذُوبَ أَكْبادُكُمْ أَسًى ، مَتَى سَمِعْتُمْ وَصِيَّةَ « قَيصَرَ » ! »
فَصاحَ بِهِ الْحاضِرُونَ هاتِفِينَ : « الوَصِيّةَ ! الوَصِيّةَ ! لا بُدَّ أَنْ تُسْمِعَنا وصِيَّةَ « قَيْصَرَ » ! »
فَقالَ « أَنْطُنْيُوسُ » : « إذا شِئْتُمْ أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي وَصِيّةَ « قَيْصَرَ » فتعالَوْا — أَيُّها الإِخوانُ — وَالْتَفُّوا حَوْلَ جُثَّةِ عَظِيمِنا الرّاحِلِ ، لِأُرِيَكُمْ ماذا فَعَلَ أَصْحابُ « قَيصرَ » : صاحِبِ الْوَصِيّةِ . »
ثُمَّ تَرَكَ « أَنْطُنْيُوسُ » الْمِنَصَّةَ ، وَرَفَعَ عَباءَةَ « قَيصرَ » الَّتِي

ارْتَداها يَوْمَ انْتِصارِهِ الْمَجيدِ ، ثُمَّ قالَ :

« لَيْسَ لِي مِثْلُ فَصاحَةِ « بُرُوتَسَ » وَلَباقَتِهِ ، وظَرْفِهِ وفِطْنَتِهِ . ولٰكِنْ حَسْبِي أَنْ أُنْهِيَ إِلَيْكُمْ فَصْلَ الْخِطابِ (الْقَوْلَ الْحاسِمَ) ، حِينَ أُرِيكُمْ جِراحَ « قَيْصَرَ » الْعَظِيمِ ، الَّذِي أَخْلَصَ لَكُمُ الإِخْلاصَ كُلَّهُ ، ومَحَضَكُمْ (أَصْفَى لَكُمْ) الْحُبَّ وَالْوَلاءَ . فإِنَّ هٰذِهِ الْجِراحَ وَحْدَها لَتَنْطِقُ بِأَبْلَغِ لِسانٍ ، فَتُثِيرُ شَكْواها صُمَّ الْجَمادِ ، وتُحَرِّكُ أَحْجارَ « رُومَةَ » جَمِيعًا . انْظُرُوا إِلَى هٰذا الْجُرْحِ الدَّامِي ، تَرَوْا طَعْنَةَ « كَسْكا » ، وَتَرَوْا إِلَى جانِبِها طَعْنَةَ « بُرُوتَسَ » : الصَّدِيقِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفسِ « قَيْصَرَ » ، والصَّفِيِّ الْوَفِيِّ الَّذِي اخْتارَهُ « قَيْصَرُ » ! وَها هِيَ ذِي طَعْنَةُ الطَّعَناتِ الَّتِي مَزَّقَتْ قَلْبَهُ الشُّجاعَ ! »

وما بَلَغَ « أَنْطُنْيُوسُ » هٰذا الْحَدَّ مِنْ خُطْبَتِهِ ، حَتَّى ثارَ الشَّعْبُ ، واسْتَوْلَى عَلَيهِ الْغَضَبُ ، وغَمَرَتْهُ مَوْجَةٌ مِنَ الْحَنَقِ وَالْغَيْظِ . فَصاحَ الْجَمْعُ مُهتاجِينَ : « الوَيْلُ لِـ « بُرُوتَسَ » وَرِفاقِهِ . أَما وَاللهِ لَنُزَلْزِلَنَّ دارَهُ ، ولَنُحَرِّقَنَّ أَصْحابَهُ الغادِرِينَ ! »

فَقالَ « أَنْطُنيُوسُ » : « أَناةً وَمَهْلًا — يا بَنِي وَطَنِي — وَصَبْرًا ،

فَإِنَّكُم لَمَّا تَسْمَعُوا وَصِيَّةَ « قَيْصَرَ » ! »

فَصاحُوا : « الْوَصِيَّةَ ! الْوَصِيَّةَ ! صَدَقْتَ — أَيُّها النَّبِيلُ — فاتْلُ عَلَيْنا وصِيَّةَ « قَيْصَرَ » ! »

فَقال « أَنْطُنْيُوسُ » : « ها كُمُ اقْرَأُوا وَصِيَّتَهُ ، وَعَلَيْها خاتَمُهُ ، وانظُرُوا ما تَحْوِيهِ . اسمَعُوا ما كَتَبَهُ لَكُمْ . لَقَدْ وَهَبَ لَكُم — فِي هٰذِهِ الْوَصِيَّةِ — كُلَّ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ ، وَأَوْرَثَكُمْ فِيها كُلَّ ما فِي حَوْزَتِهِ من حَدائِقَ ومُتَنَزَّهاتٍ ! هٰذا هُوَ « قَيْصَرُ » الَّذِي غَدَرُوا بِه ؛ فَهَلْ يَجُودُ الزَّمَنُ بِمِثْلِهِ ؟ »

فَصاحُوا مَحْزُونِينَ :

« كَلَّا ، كَلَّا ! فَإِنَّ الدَّهْرَ بِمِثْلِهِ لَضَنِينٌ (بَخِيلٌ) ! »

١١ — مَقْدَمُ « أُكْتَفْيُوسَ »

وَهٰكَذا أَفْلَحَ « أَنطُنْيُوسُ » فِي إِثارَةِ الْجُمْهُورِ ، وَإِلْهابِ نارِ الثَّوْرَةِ ؛ لِيُصْلِيَ (لِيُحْرِقَ) بِها أَعْداءَ « قَيْصَرَ » . فاندفعَ سَوادُ الرُّومانِيِّينَ (عامَّتُهُمْ) ؛ لِيَفْتِكُوا بِقاتِلِي « قَيْصَرَ » وأَنْصارِهِ .

وَثَمَّةَ ارْتاحَ « أَنطُنيُوسُ » ، وَتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ (والصُّعَداءُ : التَّنَفُّسُ الطَّوِيلُ مِنْ هَمٍّ أَوْ تَعَبٍ) ، وَقدِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ ما يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَأْلِيبِ الجُمْهورِ على خُصُومِهِ وَأعدائِه .

وَسُرْعانَ ما وَلَّى « بُروتَسُ » وَ« كَسْياسُ » فِرارًا منَ الثَّائِرِينَ ، وَخَرَجا منَ الْمَدِينَةِ هائِمَيْنِ عَلَى وَجْهَيْهِما (سائِرَيْنِ عَلَى غَيْرِ هُدًى ، لا يَعْلَمانِ لَهُما وِجْهَةً) .

وبَعْدَ قَلِيلٍ ، عَلِمَ « أَنطنيُوسُ » بِمَقْدَمِ صَدِيقِه « أُكْتَفْيُوسَ » إِلَى « رُومَةَ » ؛ فأيقنَ — حِينَئِذٍ — بِالِانْتِصارِ عَلَى الْأَعْداءِ ، وَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَقْدَمِ « أُكْتَفْيُوسَ » فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الحَرِجَةِ (الخَطِيرَةِ) ؛ لِتَتِمَّ عَلَى يَدَيْهِما هَزِيمَةُ القَتَلَةِ الغادِرِين .

الفصل الرابع

١ — لِقاءُ الصَّدِيقَيْنِ

لَمْ يُضِعْ « أَنْطُنْيُوسُ » شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ سُدًى (بِلا فائِدَةٍ) ، بَلْ أَسْرَعَ إِلَى لِقاءِ صَدِيقِهِ « أُكْتَفْيُوسَ » ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ ما حدَثَ فِي أَثْناءِ غَيْبَتِه عَنْ « رُومَةَ » . وَدارَ بَيْنَهُما حِوارٌ طَوِيلٌ ، ثُمّ اجْتَمَعَ رَأْياهُما على أنْ يُسْرِعا إلى حَشْدِ جَيْشٍ عَظِيمٍ — مِنْ أَنْصارِهِما — لِمُهاجَمَةِ « بُرُوتَسَ » وَ« كَسْياسَ » اللَّذَيْنِ نَشِطا إلى النِّضالِ ، وأسرَعا إلَى القِتالِ ، وجَمَعا حوْلَهُما جَيْشًا كَبِيرًا ، وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا (لَمْ يُقَصِّرا) فى جَمْعِ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ — مِنَ الْجُنودِ — لِغَزْوِ أصحابِ « قَيْصَرَ » ، والقَضاءِ على كُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُه بالِانْتِصارِ لِعَظِيمِ « رُومَةَ » الرّاحِلِ .

فَأَقَرَّهُ « أُكْتَفْيُوسُ » على رَأْيِه ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ ، وَجَمَعَ جَيْشَهُ ، وَسارُوا مُجِدِّينَ ؛ لِيَنْكُلُوا بِالْغادِرِينَ ، وَيَثْأَرُوا لِـ « قَيْصَرَ » (يَنْتَقِمُوا لَهُ) مِنْ قاتِلِيه .

٢ — بَينَ « بُروتَسَ » وَ« كَسْياسَ »

وَنَشِبَ خِلافٌ (ثارَ واشْتَبَكَ) بَيْنَ « كَسْياسَ » وَ« بُروتسَ » ، فَكادَتْ تَذْهَبُ رِيحُهُما (كادا يَفْنَيانِ) ، وَأَوشَكَ الْخِلافُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِما فى ذٰلِكَ الوَقْتِ العَصيبِ (الشَّديدِ) . وَكانَ مَبْعَثُ هٰذا الخِلافِ أَنَّ « بُروتَسَ » قَدْ أَصَرَّ على مُعاقَبةِ أَحدِ أَنْصارِ « كَسْياسَ » لِاعْوِجاجِ سَيْرِهِ ، وقَبُولِهِ الرِّشْوَةَ . فَبعَثَ إِلَيْهِ « كَسْياسُ » مُتَشَفِّعًا فِيهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ « بُروتسُ » شَفاعَتَهُ . فَأَسَرَّها « كَسْياسُ » فى نَفْسِهِ ، وَقَبَضَ يَدَهُ عَن إمْدادِ « بُروتسَ » بِالْمالِ . فَلَمَّا الْتَقَى الصَّدِيقانِ ، بدأَ « كَسْياسُ » صَديقَهُ « بُروتسَ » بِالْعِتابِ لِرَفْضِ شَفاعَتِهِ .

فَقالَ لَهُ « بُروتسُ » : « ما كان أَجْدَرَكَ أَن تُبْعِدَ نَفْسَكَ عَنْ مَواطِنِ الرِّيَبِ (أَماكِنِ التُّهَمِ) ، فَلا تُعَرِّضَها لِلشَّفاعَةِ فِي مِثْلِ هٰذا الأَثيمِ الْمُرْتَشى ! »

فَقالَ له « كَسْياسُ » : « ما كان أَجْدَرَكَ أَن تَتَغاضَى (تَتَسَمَّحَ)

عنِ الْمُحاسَبةِ على الصَّغائِرِ ، والْعِقابِ على الْهَنَواتِ (الذُّنوبِ الْيَسيرَةِ) فِي مِثْلِ هٰذِهِ الأَوْقاتِ الْعَصِيبَةِ ! »

فَقالَ « بُروتسُ » : « إنّ مِثْلِي خَليقٌ بأَنْ يَزِنَ بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقيمِ (المِيزانِ الْعادِلِ) ، وأَنْ يُعاقِبَ الْمُسيءَ على إساءَتِهِ ، ويَجْزِيَ الْمُحْسِنَ عَلى إحْسانِهِ . ولٰكِنَّكَ تَتَغاضَى عنْ أَمْثالِ هٰذِهِ الزَّلَّاتِ (السَّقَطاتِ والغَلَطاتِ) لأنَّكَ مُلَوَّثُ الْيَدِ ، مُتَّهَمٌ بِإِسْنادِ الْمَناصِبِ الرَّفيعَةِ إلى غَيْرِ الأَكْفاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ ، طَمَعًا فى مالِهِمْ ، وَاسْتِجْلابًا لِرِفْدِهِمْ (طَلَبًا لِما يُعْطُونَهُ إيَّاكَ مِنَ الْعَطايا) . »

فَقالَ « كَسْياسُ » : « أَلِمِثْلِي يُقالُ هٰذا الْكَلامُ ؟ أَتَقْبَلُ فى نَزاهَتِي مَطْعَنًا ؟ أَمَا — واللهِ — لَوْ قالَها غَيْرُكَ لَكانَ لِي مَعَهُ شأْنٌ آخَرُ ، وَلَكانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ (فَمِهِ) ! »

فَقالَ « بُروتسُ » : « أَمَا — واللهِ — لَوْ غيرُ « كَسْياسَ » اقْتَرَفَ (ارتَكَبَ) مِثلَ هٰذا الإِثْمِ ، لَاسْتَحَقَّ مِنِّي أَعْدَلَ الْقِصاصِ (الجَزاءِ والْعُقُوبَةِ) . »

فَصاحَ « كَسْياسُ » : « هَل بلَغَ الأَمْرُ حَدَّ الْقِصاصِ ؟ »

فقالَ « بُرُوتسُ » : « أَنسِيتَ مُنْتصَفَ مارسَ ؟ خبِّرْنى : فى أىِّ سبيلٍ قتلْنا « قيصرَ » ؟ أليسَ فى سبيلِ العدلِ والإنصافِ قتلْناهُ ؟ فكيفَ نغتالُ سيِّدَ « رُومةَ » ونفتِكُ بهِ ، من أجلِ ذنبٍ نغفِرُهُ لمثلكَ ولمثلِ قوّادِكَ المُرتشينَ ؟ قُلْ لى : كيفَ أتغاضَى عنِ اللُّصوصِ ، وأَصفحُ عنِ الأَثَمةِ ، وأَخونُ وطنِى ، وأَخفِرُ عهدِى (أنقضُهُ) ، وأَعُقُّ ضميرى ؟ خبِّرْنى : كيفَ أقبلُ شفاعتَكَ فى مُجرمٍ أثيمٍ ؟ إنِّى لأُوثِرُ أنْ أُمسَخَ كلبًا على أنْ أكونَ رُومانيًّا آثمًا ! »

فقالَ « كَسْياسُ » : « ألا لا تُحاوِلَنَّ أن تأخُذَنى بمثلِ هذهِ العباراتِ الخادعةِ ، وتسحَرَنى بتلكَ الأساليبِ الخلّابةِ ! فإنِّى لنْ أحتَمِلَ منكَ هذهِ الإهانةَ ، ولنْ أصبِرَ على تطاوُلِكَ بعدَ الآنَ ! أنسِيتَ أنِّى أقدمُ منكَ عهدًا بالجُنديَّةِ ، وأوفَرُ منكَ تجربةً ؟ فكيفَ تُلصِقُ بى مثلَ هذهِ الشُّنَعِ (الفضائحِ) ؟ »

فقالَ « بُرُوتسُ » :

« أقصِرْ (كُفَّ عنِ الكلامِ) ، فما أنتَ بذاكَ ! »

فقالَ « كَسْياسُ » : « حذارِ أن تمتحِنَ صبْرى ، يا « بُرُوتسُ » : فما أنا بغافرٍ لكَ إساءةً بعدَ هذهِ . وما أجدرَكَ أن تُؤْثِرَ السَّلامةَ والعافيةَ ! »

فقالَ « بُرُوتسُ » :

« ما أحقرَ وعيدَكَ ، وما أعجزَكَ عنْ تحقيقِ هذا الهذَيانِ ! »

٣ — حِوارٌ صاخِبٌ

وهُنا ثارَ « كَسْياسُ » ، واشتدَّ غيظُهُ ، ونشِبتْ مُلاحاةٌ (ثارتْ مُشاتمةٌ) صاخِبةٌ بينَ الصَّديقَيْنِ . فقالَ « كَسْياسُ » مُهتاجًا :

« كيفَ اجترأْتَ علَيَّ ، وزيَّنَ لكَ الغُرورُ أن تركَبَ هذا المركَبَ الوعْرَ (الصَّعبَ) ؟ إنَّنى لا أكادُ أُصدِّقُ ما تسمعُهُ أُذنایَ ! »

فقالَ « بُرُوتسُ » : « خُذْها كلمةً حاسمةً : أتُرانى أفرَقُ (أتظنُّنى أخافُ) وأجزَعُ لصخَبِ أحمقَ ، أوْ هذَيانِ مجنونٍ ؟ »

فقالَ « كَسْياسُ » : « يا للهِ ! كيفَ أحتمِلُ هذهِ الجُرأةَ ؟ »

قَالَ « بُرُوتَسُ » : « ما أجْدَرَكَ أنْ تَسْمَعَ أضْعافَ ما سَمِعْتَ ، حَتَّى تَنْشَقَّ مَرارَتُكَ غَيْظًا ، وَيَنْفَطِرَ قَلْبُكَ حُزْنًا ! وَما أدْرِى : كَيْفَ سَوَّلَتْ (زَيَّنَتْ) لكَ نَفْسُكَ أنْ تُفاخِرَنى وتُكاثِرَنى مِنْ غَيرِ أنْ تَخْشَى عاقِبَةَ هٰذا الطَّيْشِ ؟ ألَمْ يَكُنْ أحْجَى (أجْدَرَ وَأوْلَى) بِكَ ، وأهْدَى لَكَ : أن تَرْعَدَ وتَثُورَ عَلَى خَدَمِكَ وأرِقَّائِكَ ؟ إنَّكَ — لَوْ فَعَلْتَ — لَرَأيْتَ فَرائِصَهُمْ تَرْتَعِدُ ، خَوْفَ تَهْدِيدِكَ ، ورَهْبَةَ وَعِيدِكَ (والْفَرائِصُ : هِيَ ما بَيْنَ الْجُنُوبِ والْأكْتافِ) . أمَّا أنا فَلأَتَّخِذَنَّكَ — مُنْذُ الآنَ — ضُحْكَةً (وهُوَ ما يُضْحَكُ مِنْهُ) ، وَلَأَلْهُوَنَّ بِكَ ما حَيِيتُ ؛ لِأتَفَكَّهَ بِغَضَبِكَ ، وأُرَوِّحَ عنْ نَفْسِى بإيلامِكَ وتنغيصِ عَيْشِكَ ! »

قَالَ « كَسْيَاسُ » : « ما أُراكَ إلَّا مُتَمادِيًا فى الْإساءَةِ ! »

قَالَ « بُرُوتَسُ » : « لَقَدْ فاخَرْتَنى بِأنَّكَ أجْلَدُ مِنِّى عَلَى الْقِتالِ وأقْوَى ، وزَعَمْتَ أنَّكَ أخْبَرُ بالْحَربِ وأدْرَى ؛ فَهلَّا حَقَّقْتَ ما زَعَمْتَ وأرَيْتَنى كيفَ بَصَرُكَ بالْعِراكِ ، ومَعْرِفَتُكَ بالْمُحارَبَةِ ؟ »

قالَ « كَسْياسُ » : « ما أكْثَرَ ما تَتَجَنَّى عَلَىَّ ، يا « بُرُوتَسُ »

(ما أكْثَرَ ما تَنْسُبُهُ إلَىَّ مِمَّا لَمْ يَقَعْ مِنِّى) ! فَقَدْ قُلْتُ لَكَ : إنَّنى أقدَمُ عَهْدًا ، وأوفَرُ تَجرِبَةً ، ولَم أقُلْ : إنَّنى أشْجَعُ مِنكَ وأقْدَرُ . »

فَقَالَ « بُرُوتَسُ » : « لَو قُلْتَها لَما أبَهْتُ لكَ (لَما اهتَمَمْتُ بِكَ) ، ولا أقَمتُ لِما تَقُولُ وَزْنًا ! » فَقَالَ « كَسياسُ » : « إنَّ « قَيصَرَ » نَفْسَهُ ما كانَ لِيَجْتَرِئَ عَلَىَّ — فى حياتِه — فَيَفْعَلَ مِثْلَ ما فَعَلْتَ ! »

فقالَ « بُرُوتسُ » : « هَوِّنْ عليكَ ؛ فإنَّكَ لَم تَكُنْ لِتَجرُؤَ على استِثارَةِ « قَيصَرَ » وإغْضابِهِ ، وَلو عَرَّضَ حياتَكَ لِلتَّلَفِ . »

فَقَالَ « كَسياسُ » : « إنَّ لِكُلِّ بِدايَةٍ نِهايَةً ، وإنَّ لِلحِلْمِ غايَةً لا سَبِيلَ إلى تَجاوُزِها . وما أخْوَفَنى أن أُقْدِمَ على أمرٍ جَلَلٍ (عَظِيمٍ خَطِيرٍ) أنْدَمُ عَليهِ بَعدُ ! »

فَقَالَ « بُرُوتَسُ » : « لا عَلَىَّ (لا ضَيْرَ ولا خَوفَ من وَعِيدِكَ) ، فإنِّى — بِما لِى منَ الشَّرفِ والنَّزاهَةِ — لَفِى حِصْنٍ حَصِينٍ ، ولَنْ يَبلُغَ وعيدُكَ مِنِّى إلَّا ما تَبلُغُ الرِّيحُ مِنْ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ ! أَتَذْكُرُ كَيفَ ضَنِنْتَ علَىَّ بالْمالِ أُنفِقُهُ على جَيْشِى ؟ »

فقالَ « كَسْياسُ » : « ما أذْكُرُ أنَّنى ضَنِنْتُ عليكَ بشَىْءٍ

مِمَّا تَطْلُبُ، ولٰكِنَّها حَماقَةُ الرَّسُولِ ، وأَفَنُ رأْيِهِ (سُوءُ تَدْبيرِهِ) .
وما كانَ أجدرَكَ — إنْ كُنْتَ صَدِيقًا — أَن تَغفِرَ لصديقِكَ هَنَواتِهِ ، وتتجاوزَ عن إساءاتِهِ ؛ فإنَّ عَيْنَ الْحُبِّ عَمْياءُ ، لا تنظرُ إلى الْمَساوِئ والْعُيُوبِ . » فقالَ « بُرُوتَسُ » :

« إنَّ عَيْنَ الرِّياءِ والنِّفاقِ هِيَ — وَحْدَها — الَّتِي تَعْمَى عَنِ الْغَلَطِ، وَلا تَرَى الْعُيُوبَ ، وَلَوْ عَظُمَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ مِثْلَ الْجَبَلِ . »

٤ — صُلْحُ الصَّدِيقَيْنِ

فَقالَ « كَسْياسُ » مُتَأَلِّمًا : « هَلُمَّ يا «أَنْطُنْيوسُ» ويا «أُكْتَفْيُوسُ» ، وتَعالَيا إلى « كَسْياسَ » ، فاقْتُلاهُ ، وَأَزْهِقا رُوحَهُ ؛ فَقَدْ مَلَّ البَقاءَ فى هٰذِهِ الدُّنْيا ، بعْدَ أَنْ تغيَّرَ عليهِ قَلبُ صَفِيِّهِ الْحَبيبِ « بُرُوتَسَ » ، وتنكَّرَ لهُ أوْفَى النَّاسِ ، وَأَبَرُّهُمْ بِهِ .

أَلا لا خَيْرَ فى الْحَياةِ — أَيُّها الصَّدِيقُ — بَعْدَ أَنْ فَسَدَ ما بَيْنَنا مِنْ حُبٍّ وَإِخْلاصٍ . فهاكَ خِنْجَرِى ، فَأَغْمِدْهُ فى قَلْبِي ، وَأَرِحْنى مِنْ هٰذِهِ الْحَياةِ ! »

فَهَشَّ لهُ « بُرُوتسُ » وبَشَّ ، وَقالَ لهُ : « أَغْمِدْ خِنْجَرَكَ — أَيُّها الصَّدِيقُ — فإِنِّى مُتَجاوِزٌ لَكَ عَنْ كُلِّ ما حَدَثَ ، وَمُعْتَذِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ إساءَةٍ بَدَرَتْ مِنِّى . وَلْتَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ قَلْبى لا يَحْمِلُ حِقْدًا وَلا ضِغْنًا : فَهُوَ كالزَّنْدِ : إذا أوريْتَهُ (قَدَحْتَ بِهِ لِتُخْرِجَ نارَهُ) أرسَلَ شَرارةً ضَئِيلَةَ الْخَطَرِ (حَقيرةَ الشَّأْنِ) ، ذاهبَةً فى الْهواءِ ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ الزَّنْدُ أنْ يَعودَ كما كانَ . »

وَهٰكَذا تَصافَحَ الصَّدِيقانِ . وَعادَ إلى قَلْبَيْهِما الصَّفاءُ ، وَشَدَّ كلٌّ مِنْهُما عَلَى يَدِ الآخَرِ ، مُجَدِّدَيْنِ الْعَهْدَ على الْوَفاءِ .

وَقدْ حزِنَ « كَسْياسُ » حِينَ أَخْبرَهُ « بُرُوتسُ » أنَّ مَبْعَثَ آلامِهِ وَحَنَقِهِ عَلَيهِ ، ما بَلَغَهُ عَنْ مَصْرَعِ زَوْجِهِ « پُرْشا » . فَقَدْ عَلِمَ — فى ذٰلِكَ الْيَوْمِ — أنَّ غِيابَهُ قَدْ أَضْنَى جِسْمَها ، وَأَذْهَلَها ما رَأَتْهُ مِن تَأَلُّبِ أعْدائِهِ ، واجْتِماعِهِم عليهِ ؛ فَقَتَلَتْ نَفْسَها إشْفاقًا على « بُرُوتَسَ » ، حَتَّى لا تَرى — بِعَيْنَيْها — مَصْرَعَهُ الوَشِيكَ .

فَشارَكَهُ « كَسْياسُ » فى حُزْنِهِ ، وَأَسَّاهُ فى مُصابِهِ ، ثُمَّ قال لهُ :
« لَمْ يَبْقَ أَمامَنا إلَّا الْجِدُّ والإِقْدامُ ، حتى لا يَدْهَمَنا الأَعْداءُ . »

ثُمَّ وَدَّعَ كُلٌّ مِنْهُما صاحِبَهُ ، على أنْ يَلْتقِيا فى الْغَدِ .

٥ — طَيْفُ « قَيْصَرَ »

وَقضَى « بُرُوتَسُ » لَيْلَةً مُفزِّعَةً ، مُسْتَسْلِمًا لِأَشْجانِهِ ، وَهُمُومِهِ وَأَحْزانِهِ . وإِنَّهُ لَغارِقٌ فى وَساوِسِهِ يُقَلِّبُ بَعْضَ أوراقِهِ ، إذْ لاحَ أمامَهُ شَبَحُ « قَيْصَر » فى هَيْئَةٍ مُزْعِجَةٍ ؛ فاسْتَوْلَتْ عليهِ الدَّهْشَةُ ،

وَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى ، وصاحَ فيهِ مَذْعورًا : « أىُّ طَيْفٍ أنْتَ ؟ فقدْ أزْعَجْتَنى ، وكادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فى عُرُوقى لِرُؤْيَتِكَ . »

فَقالَ لهُ الطَّيْفُ : « لَسْتُ إِلَّا رُوحَكَ الْخَبيثَةَ ، يا « بروتَسُ » ! »

فَقالَ لهُ وَجِلًا : « فَما بالُكَ تَزُورُنى الآنَ ؟ »

فَقالَ لهُ طَيْفُ « قَيْصر » :

« إنَّما زُرْتُكَ لِأُخْبِرَكَ بِأَنَّ لِقاءَنا وَشيكٌ (قَريبٌ) . »

ثُمَّ اسْتَخْفَى شَبَحُ « قَيْصَرَ » عَنْ ناظِرِهِ . فَصاحَ « بُرُوتَسُ » فَزِعًا راهِبًا ؛ فانْتَبَهَ خادِمُهُ مَذْعورًا مَرْعوبًا ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ صِياحِهِ .

فَقالَ لهُ « بُروتسُ » : « لَسْتُ أَذْكُرُ أَنَّنى صِحْتُ ، وَلَعلَّكَ حالِمٌ فى هٰذا ؛ فَخَبِّرْنى : هَلْ أَبْصَرْتَ فى مَنامِكَ طَيْفًا ؟ »

* * *

فَقالَ لَهُ خادِمُهُ :

« كَلَّا يا سَيِّدى ، ما رَأَيْتُ شَيْئًا . »

فَقالَ لَهُ « بُروتسُ » :

« لا عَلَيْكَ ، فاذْهَبِ الْآنَ إلى « كَسْياسَ » ، واُطْلُبْ إِلَيْهِ أن يُبَكِّرَ فى زَحْفِهِ ، صَباحَ الْغَدِ : لِأَنَّنى قَدِ اعْتَزَمْتُ مُهاجَمَةَ الْأَعْداءِ فى إثْرِهِ ، وإنَّا عليْهِمْ لَمُنْتَصِرونَ ! »

١ – قُبَيْلَ الْمَعْرَكَةِ

الْتَقَى الْجَيْشانِ فى سُهُولِ « فِيلِبِّى » ، وتَحَفَّزَ الْجَمْعانِ لِلاشْتِباكِ فى الْمَعْرَكَةِ الْحاسِمَةِ ، والْقَضاءِ على الْعَدُوِّ قَضاءً مُبْرَمًا ، لا تَقُومُ لَهُ قائِمَةٌ مِنْ بَعْدِهِ . وَتَشاوَرَ « أَنْطُنيوسُ » و « أُكْتَفيوسُ » فى خُطَّةِ الْحَرْبِ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَرَّ رَأْيُهُما على أَنْ يَنْحازَ أَحَدُهُما (يَرْتَدَّ وَيَميلَ) إلى يَمينِ السَّهْلِ ، ويَذْهَبَ الآخَرُ إلى الشِّمالِ .

* * *

ورَأَى زُعَماءُ الْمُتَحارِبينَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعضٍ قُبَيْلَ الزَّحْفِ . ودارَتْ بَيْنَ « أَنْطُنيوسَ » و « كَسْياسَ » مُلاحاةٌ (مُشاتَمَةٌ) صاخِبَةٌ ، ثُمَّ قالَ « أَنْطُنيوسُ » :

« لَيْسَ لَنا بُدٌّ مِنَ التَّنْكيلِ بِكُمْ ، بَعْدَ أَنْ غَدَرْتُمْ بِـ « قَيصَرَ » العَظيمِ ، وَقَتَلْتُموهُ غِيلَةً (مِنْ حَيْثُ لا يَدْرى) . وَقَدْ كُنْتُمْ – فِى حَياتِهِ – تَرْجُفُونَ (تَضْطَرِبُونَ) ، وتُقَبِّلونَ مَواطِئَ نِعالِهِ ، ولا تَأْلُونَ جُهْدًا فى تَمْليقِهِ والتَّزَلُّفِ إِلَيْهِ . »

فَأَجابَهُ « كَسْياسُ » : « لَوْ أَنَّ « بُرُوتَسَ » أَخَذَ بِرَأْيِى فى قَتْلِكَ – بَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنا « قَيصَرَ » – لَأَسْكَتْنا لِسانَكَ السَّليطَ (الطَّويلَ) ، وَارْتَحْنا مِنْ مُباهاتِكَ الجَوْفاءِ (الفارِغَةِ) . على أَنَّ السَّيْفَ كَفيلٌ بِالْقَضاءِ بَيْنَنا جَميعًا ، وَهُوَ قاضٍ عادِلٌ ، لا يُرَدُّ لَهُ حُكْمٌ ، ولا يُنْقَضُ لَهُ أَمْرٌ . »

٢ – هَزيمَةُ « أُكْتَفيُوسَ »

وطالَ الْحِوارُ بينَ الْمُتَناظِرِينَ : فامْتَشَقُوا سُيُوفَهُمْ (شَهَرُوها) . والْتَقَتِ الْجُيوشُ ، واسْتَبْسَلَ جُنُودُ الفَرِيقَيْنِ ، والْتَحَمَ جَيْشُ « بُرُوتَسَ » بِجَيْشِ « أُكْتَفيُوسَ » فى مَيْدانٍ ، والْتَقَى جَيْشُ « أَنْطُنْيُوسَ » بِجَيْشِ « كَسْياسَ » فى مَيْدانٍ آخَرَ .

* * *

وكانَتِ الْقُوَى مُتَكافِئَةً – فى أَوَّلِ الْمَعْرَكَةِ – والنَّصْرُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ . ثُمَّ رَجَحَتْ – فى مِيزانِ الْقِتالِ – كِفَّةُ

« برُوتَسَ » على خَصْمِهِ « أُكْتَفيُوسَ » ، وأَجْلاهُ عَنْ مَوْقِفِهِ ، وانْتصَرَ عليهِ انْتِصارًا باهِرًا .

٣ — مَصْرَعُ « كَسْياسَ »

وَقَدْ كانَ أَحْجَى بِهِ أَنْ يَصْرِفَ جُهُودَهُ إلى مُهاجَمَةِ « أَنْطُنْيُوسَ » ، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ على عَدُوِّهِ . ولَكِنَّ « بُرُوتَسَ » لَمْ يَفْعَلْ ، وَأَبَى إلّا أَنْ يُنَكِّلَ بِخَصْمِهِ ، وَيُحَرِّقَ خِيامَهُ ، وَيُخَرِّبَ سُرادِقاتِهِ ، ويُمَزِّقَ أَعْلامَهُ وَراياتِهِ .

* * *

وَنَظَرَ « كَسْياسُ » ، فَرَأَى النَّارَ تَشْتَعِلُ فِي ساحَةِ الحَرْبِ ، فَلَمْ يَدْرِ مَكانَها ، على التَّحْقِيقِ . وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ خَصْمُهُ « أَنْطُنْيُوسُ » قَدْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي خِيامِهِ — بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ — فَأَرْسَلَ قائِدَهُ « تِتِنْيُوسَ » ، لِيَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ . وَما ذَهَبَ « تِتِنْيُوسُ » حَتَّى قَدِمَ خادِمُ « كَسْياسَ » عابِسَ الوَجْهِ ، كالِحَ اللَّوْنِ : فَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ أَنَّ « أَنْطُنْيوسَ » قَدْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ على جَيْشِهِ ،

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إلَّا أَنْ يَأْسِرَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ .

فاشْتَدَّ جَزَعُ « كَسْياسَ » ، وحَسِبَ خادِمَهُ مُتَثَبِّتًا مِمَّا فاهَ (نَطَقَ) بِهِ ؛ فَقالَ لَهُ : « هاكَ سَيْفِي — يا غُلامُ — فاقْتُلْنِي بِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْفَرَ بِي « أَنْطُنْيُوسُ » ؛ فَإِنَّ الحِمامَ (المَوْتَ) خَيْرٌ — عِنْدِي — مِنَ الوُقُوعِ فِي أَسْرِ العَدُوِّ . » وَلَمْ يَكَدْ « بِنْدارُوسُ » يُلَبِّي أَمْرَ سَيِّدِهِ مُضْطَرًّا ، حَتَّى قَدِمَ القائِدُ « تِتِنْيُوسُ » يَحْمِلُ أَنْباءَ النَّصْرِ ، لِيَزُفَّها إلى « كَسْياسَ » . وَلا تَسَلْ عَنْ جَزَعِ القائِدِ حِينَ رَأَى مَصْرَعَ صاحِبِهِ ، فَقَدْ بَلَغَ حَدًّا لا يُوصَفُ .

٤ — مَصْرَعُ « بُرُوتَسَ »

وَلَمْ يَكَدْ « بُرُوتسُ » يَتَعَرَّفُ هٰذا النَّبأَ الهائِلَ ، حَتَّى دارَتْ بِهِ الأَرْضُ ، وَضاقَتْ عَلَيْهِ السُّبُلُ ، وَأَيْقَنَ أَنَّ رُوحَ « قَيْصَرَ » العَظِيمِ قَدِ انْتَصَرَتْ عليهم بِقُوَّتِها بَعْدَ مَوْتِهِ . وسَمِعَ جُنْدَهُ يَتَواصَوْنَ بِالفِرارِ ؛ فَتَحَطَّمَتْ آمالُهُ ، وشَعَرَ بِعَجْزِهِ عَنْ مُقاوَمَةِ أَعْدائِهِ ، وَرَأَى خِذْلانَهُ ؛ فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ المَوْتِ مُنْقِذًا مِنَ الوَرْطَةِ ، ومُخَلِّصًا مِنَ المَأْزِقِ .

وَرَأى « أنْطُنْيُوسَ » وَصاحِبَهُ « أُكْتَفيُوسَ » يَقْتَرِبانِ مِنْهُ ، فَقالَ : « الآنَ لا خَيْرَ لِي فِي الحَياةِ . فَوَداعًا أيُّها الأصْدِقاءُ ، فَإنِّي قاتِلٌ نَفْسِي بِالسَّيْفِ الَّذِي أغْمَدْتُهُ فِي صَدْرِ « قَيْصَرَ » ! . . . »

ثُمَّ قالَ : « لِتَهْدَأْ رُوحُكَ السّاخِطَةُ — يا « قَيْصَرُ » — فَإنِّي مُنْتَقِمٌ لَكَ مِنْ نَفْسِي ! »

وَما أَتَمَّ آخِرَ كَلِمَةٍ مِن هٰذِهِ الْجُمْلَةِ ، حَتَّى سَدَّدَ سَيْفَهُ إلى قَلْبِهِ ؛ فَخَرَّ صَرِيعًا على الأرْضِ ، وَفاضَتْ رُوحُهُ .

٥ — مَرْثِيَةُ « أنطنيوسَ »

وَلَمّا قَدِمَ « أنْطُنْيُوسُ » و « أُكْتَفيُوسُ » رَأياهُ جُثَّةً هامِدَةً ؛ فَجَزِعا لِمَصْرَعِهِ ، وَأضْناهُما الْحُزْنُ والْكَمَدُ .

وَرَثاهُ « أنْطُنْيُوسُ » قائِلًا :

« لَقَدْ كُنْتَ أنبَلَ رُومانِيٍّ ، وَيَعْلَمُ اللهُ أنَّكَ ما قَتَلْتَ « قَيْصَرَ » عَنْ حِقْدٍ وكَراهِيَةٍ وَجُحُودٍ (إنكارٍ للفَضْلِ) ، ولم تَكُنْ تَعْرِفُ الدَّنِيَّةَ (الْفَعْلَةَ الْحَقِيرَةَ) ، وَلَمْ تَكُنْ فِي شَمائِلِكَ (أخْلاقِكَ) غادِرًا

وَلا حاسِدًا ، ولٰكِنَّ « كَسْياسَ » الأثِيمَ هُوَ الَّذِي زَيَّنَ لَكَ هٰذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعاءَ ، وَأدْخَلَ فِي رُوعِكَ (قَلْبِكَ) ، أنَّ مَصْلَحَةَ بِلادِكَ ،

وَخَيْرَ وَطَنِكَ ، يَحْتِمانِ عَلَيْكَ اغْتِيالَ « قَيْصَرَ » ؛ فَأَوْدَى (ماتَ) مُبْكِيًّا ، وَأوْدَيْتَ مَأْسُوفًا عليكَ ! »

ثُمَّ خَتَمَ رِثاءَهُ الْبَلِيغَ قائِلًا :

« إنْ يَخْدَعِ الأشْرارُ أنبَلَ مَنْ وَفَى ، وَأبَرَّ مَنْ عادَى ، وَأكْرَمَ مَنْ مَجَدْ
أوْ يَقْتُلِ الأشْرارُ « قَيْصَرَ رُومَةٍ » بَغْيًا ، وَقَدْ أضْنَى قُلُوبَهُمُ الْكَمَدْ

فَعِصابةُ الشَّيْطانِ أَلْأَمُ عُصْبَةٍ ... قَدْ سَجّلَتْ — بِجُحُودِها — عارَ الأَبَدْ
إلَّا «بُرُوتَسَ» وَحْدَهُ — مِنْ بَيْنِهِمْ — ... إنَّا عَرَفْنا نُبْلَهُ فِيما قَصَدْ
كانُوا جَمِيعًا — ما خَلاهُ — حُسَّدًا، ... ذابَتْ قُلوبُهُمُ، وَأَشْقاها الْحَسَدْ

* * *

حَيُّوا «بُرُوتَسَ»، واهْتِفُوا بِخِلالِهِ ... حَيًّا، وَحَيُّوا جِسْمَهُ لَمَّا هَمَدْ
فَلَيُثْبِتَنَّ الدَّهْرُ — مِنْ آياتِهِ — ... سَطْرًا، إذا مُحِيَتْ صَحائِفُنا خَلَدْ
وَيَقُولُ: كانَ «بُرُوتَسٌ» رَجُلًا، وَما ... عَرَفَ الدَّنِيَّةَ — في شَمائِلِهِ — أَحَدْ
وَيَقُولُ: أَوْدَى فَخْرُ «رُومَةَ» كُلِّها ... وَأَجَلُّ ذِي فَضْلٍ تَسامَى وانْفَرَدْ.»

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٥٦٩٤
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3380 – 3	ISBN

١ / ٩١ / ٢٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)